Sana'a University Journal of Human Sciences مجلة جامعة صنعاء للعلوم الإنسانية
Vol. 5 | No. 6 | Page 521 – 551 |2026 | https://journals.su.edu.ye/index.php/jhs
ISSN : 2958-8677

"The Name Muhammad in the Qur'an A Linguistic Structure and Socio-Religious Significance Study"

Sukaina Ahmed Hashim [1,*], Mohammed Nasser Humaid [2]

[1]Department of Social Work, Faculty of Arts and Humanities - Sana'a University, Sana'a, Yemen.

[2]Department of Arabic Language and Literature, Faculty of Arts and Humanities - Sana'a University, Sana'a, Yemen.

***Corresponding author:** *Dr.sokina.hashim@hotmail.com*

Keywords

1. The Holy Qur'an
2. Muhammad
3. Selection of the proper noun Muhammad
4. Its preference over the remaining names and attributes in the studied verses

Abstract:

"This research aims to investigate the function of the proper noun 'Muhammad' in every verse where it is mentioned in the Holy Qur'an. To achieve this, we have adopted an analytical methodology that focuses on examining structural elements and their various branches. Furthermore, we utilized certain characteristics of the structuralist and descriptive approaches whenever it was necessary to describe linguistic synthetic phenomena and their connotations prior to the primary analysis.

This abstract highlights several key findings, including: the proper noun 'Muhammad' appears in the Holy Qur'an four times, rather than five as some scholars suggest. This is because the fifth instance is the title of the Surah itself, which is not considered a numbered verse; moreover, classical exegetes did not address it as part of their textual analysis of the verses.

The study also reveals that the five exegetes consulted did not explicitly state the reason for the specific choice of the name 'Muhammad' in these verses over other names and attributes abundant in the Qur'an. In our view—and Allah knows best—the name 'Muhammad' was chosen to emphasize, with profound emotional resonance, that the one most beloved and near to his Lord is ultimately a human being. Had immortality been granted to any mortal or bestowed upon any servant of Allah, it would have been the Prophet Muhammad (Peace and Blessings of Allah be upon him and his family)."

Sana'a University Journal of Human Sciences
مجلة جامعة صنعاء للعلوم الإنسانية
Vol. 5 | No. 6 | Page 522 – 551 | 2026
https://journals.su.edu.ye/index.php/jhs
ISSN : 2958-8677

محمد في القرآن الكريم دراسة في البنية اللغوية والدلالة الدينية الاجتماعية

سكينة أحمد هاشم [1،*] , محمد ناصر حُميد [2]
[1]قسم الخدمة الاجتماعية ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة صنعاء ، صنعاء ، اليمن.
[2]قسم اللغة العربية وآدابها ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة صنعاء ، صنعاء ، اليمن.
*المؤلف: Dr.sokina.hashim@hotmail.com

الكلمات المفتاحية

1. القرآن الكريم
2. محمد
3. اختيار اسم العلم محمد
4. وتفضيله في الآيات المدروسة على بقية الأسماء والصفات

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى معرفة وظيفة العلم (محمد) في كل آية ذكر فيها؛ وقد توخينا أن نختار لبحثنا هذا منهجًا تحليليًا يقف بنا على تناول عناصر التراكيب بتفريعاتها، وقد عمدنا إلى الاستعانة ببعض صفات المنهج البنيوي أو الوصفي، وذلك عندما تدفع بنا الحاجة إلى وصف الظاهرة التركيبية اللغوية ودلالاتها قبل الدخول في التحليل. وفي نهاية هذا الملخص نشير إلى بعض ما توصل إليه البحث من نتائج مثل: تكرر اسم العلم (محمد) في القرآن الكريم أربع مرات لا خمسًا كما يرى بعضهم؛ لأن الخامسة اسم السورة، والاسم ليس آية من الآيات التي تحمل أرقامًا هذا من جهة، ثم إن المفسرين لم يتعرضوا لها بأي حديث من جهة أخرى.

–تبين أن الخمسة المفسرين اللذين عُدنا إليهم واعتمدنا على تفاسيرهم لم يشيروا إلى سبب اختيار اسم (محمد) في الآية دون غيره من الأسماء والصفات التي امتلأ بها القرآن الكريم، وعندنا –والله أعلم– أنه إنما اختار الاسم (محمد) ليقرب إلى الأذهان –بصورة لا تخلو من العاطفة القوية– أن الحبيب إلى ربه والقريب إليه بشر، ولو كان الخلود قد استحق لأحد أو منحه الله لعبد من عبيده لكان ذلك البشر والعبد هو النبي محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

المقدمة:

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على نبيه المصطفى وعلى آله وصحبه ذوي الحلم والوفا، وبعد،،،

فإن خصائص البحث العلمي في القرآن الكريم تضع من يتصدى لها أمام مجموعة من القضايا لا يمكن إغفالها أو التغاضي عنها، ومن تلك أن الباحث يجد نفسه واقعًا بين أمرين لا ثالث لهما، فهو من جانب يريد أن يكون في حلف مع عظمة كتاب الله وما يتميز به من قدسية عالية أسكنت حبه والولع به في قلب كل مسلم صحيح الإيمان، وهو من جانب آخر يريد أن يتمسك بمعايير كل بحث علمي في الموضوعية التي تلزمه بقدر كاف من الحياد الذي يحصنه من أن يقع فيما تدفعه إليه نفسه من هوى يبعده عن طريق الصواب، تلك خلاصة حقيقة ما نظن أن أحدًا يماري في صحتها ويجادل في سلامتها، وبعد تفكير أخذ منا جهدًا ليس باليسير بذلناه في تقليب الأمر على مختلف جوانبه خرجنا بنتيجة أقنعتنا بالتزام جانب الموضوعية؛ لأن ما يتميز به القرآن الكريم من خصائص في الإعجاز منقطعة النظير تجعله قادرًا على أن يدفع عن نفسه كل جدلية بتمكن لم ولن يبلغه أي نص مهما تعالت صياغته وتطورت أساليبه في الوضوح والبلاغة والبيان، ومن ثم فإن للباحث بعد ذلك أن يختار للبحث ما يشاء من قضايا يجود بها النص القرآني بما ورد فيه من قضايا لا تنحصر عند حد ولا تنزوي في أي مجال، وعلى وفق هذه الحقيقة جاء اختيارنا موضوع العَلم (محمد) في القرآن الكريم علّنا نجد في دراسة تراكيب الآيات التي ورد فيها ودلالاتها ما يمكن أن يكون فهمًا جديدًا وإن قلت مسافة السفر فيه وتقاصرت خطانا إليه.

مشكلة البحث:

تتمثل مشكلة البحث في أمرين أحدهما كيفية معالجة العلاقة بين النص والتفسير، والثاني التأكد من صحة العلاقات التركيبية بدلالاتها عند بعض المفسرين، وفي السير على منهجيتنا في دراسة هذه المشكلة نشير إلى أن تحققنا من سلامة كيفية معالجتها يحملنا على وضع فرضية لحل المشكلة في سؤال رئيس هو:

ما الوظيفة التي اختارها القرآن الكريم لاسم العلم (محمد)؟

وهناك مجموعة من الأسئلة الفرعية التي تعضد هذا السؤال:

1- ما الوسائل المعرفية التي تساعدنا في الوصول إلى تلك الوظيفة؟

2- إلى أي مدى تمكن المفسرون من فهم العلاقة بين التركيب والدلالة في هذا المجال.

3- ومن الأسئلة التي تتدحرج من أعالي فلسفة اللغة، هل أسماء الأعلام تمثل على النحو نفسه الذي تمثّل به الأوصاف المعرّفة[1]؟

4- هل للأعلام معان أخرى غير دلالتها على المسمى؟

[1] – انظر: جون ر. سورل: الأعمال اللغوية: بحث في فلسفة اللغة، ترجمة أميرة غنيم، مراجعة: محمد الشيباني، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2015م، ص272.

5- هل تحمل الأعلام المنقولة عن وظائف سابقة شيئًا من دلالتها على تلك الوظائف حين تصبح أعلامًا؟

أهداف البحث:

نأمل أن نحقق هدفًا واحدًا هو معرفة وظيفة العلم (محمد) في كل آية ذكر فيها على الأساس الذي أشرنا إليه.

أهمية البحث:

أما أهمية البحث في الموضوع فإنها تتضح في حرصنا على ما يمكن أن نطلق عليه مضامين لغوية ودينية واجتماعية تكشف عن دليل آخر يضاف إلى أدلة كثيرة أبرزها الباحثون فيما يمكن إيجازه وهو أن كل كلمة في القرآن قد وضعت في مكانها الذي لا يمكن لسواها من كلمة أخرى أن تنوب عنها بأي حال من الأحوال.

أسباب اختيار موضوع البحث:

ولن نجد سببًا يحول بيننا وبين الإشارة الواضحة إلى أن المصادفة لم تتخلف عن مسايرتنا ولم تتوار عن صحبتنا في الاختيار، كان ذلك في لحظة تميزت بحوار حول قضايا توظيف الأعلام في القرآن الكريم فخطر على البال اسم (محمد) بوصفه علمًا عربيًا ذائع الصيت فقلنا ولم لا نتناوله في بحث علمي مشترك يحمل عنوان (اسم العلم محمد رسول الله دراسة في البنية اللغوية والدلالة الدينية الاجتماعية) واستقر الأمر على ذلك إلى حين لم يطل وجدنا بعده أن العنوان يحتاج منا- لو تصدينا لدراسته- إلى أكثر من سنة على أقل تقدير، لأن التركيب من المضاف والمضاف إليه (رسول الله) يحملنا على أن نتتبع كل ما جاء عن تلك الصفة في القرآن الكريم، وهو ما لا مجال لإنجازه في فترة وجيزة لا تتعدى أيامًا، وعلى ذلك استقر الأمر على أن نكتب البحث تحت عنوان (اسم العلم محمد في القرآن الكريم دراسة في البنية اللغوية والدلالة الدينية الاجتماعية)، وعندئذ نكون قد قصرنا الدراسة على اسم العلم (محمد) دون أن نغامر في تناول أي صفة أخرى لا علاقة لها بالمصطلح اللغوي المتفق عليه في مفهوم العلم، وبعد أن استقر الرأي على ذلك عقدنا العزم وبدأنا في العمل، ولأننا قد وجدنا في استمرار العمل جديةً متميزةً وحماسًا كبيرًا واصلنا الجهد الذي نتمنى أن يبلغ بنا بعض ما نريد، ذلك كان سببًا مباشرًا لاختيار الموضوع يضاف إليه سبب ثانٍ يتمثل في أن البحوث في وظيفة الأعلام في القرآن الكريم ودراستها لا تزال -فيما نعلم- قليلة إن لم تكن نادرة بشكل عام، وعلى وفق ذلك يمكن لهذا العمل أن يمثل إسهامًا ولو متواضعًا في هذا المجال، والسبب الثالث هو أن الآيات التي نصت على ذكر اسم العلم (محمد) قد توفر لها بعض خصائص مشتركة نعتقد أن المفسرين بشكل عام ومنهم المفسرون بالدراية على وجه الخصوص قد أغفلوا إلى حدٍ كبير الحديث عن تلك الخصائص، وإن ألمح إليها عدد منهم بإشارات خجولة وعلى استحياء.

حدود البحث:

تقف حدود البحث عند الآيات التي ذكر فيها اسم (محمد) ولن نتجاوزها إلى سواها إلا بالقدر الذي تفرضه ضرورة الإسهام والمساعدة في توضيح المعاني هنا أو هناك.

منهج البحث:

يُعد المنهج التحليلي (Analytical Method) أحد الأركان المنهجية الأساسية في البحث العلمي، فهو الأداة التي تمكن الباحث من التعمق بدلًا من الاكتفاء بالوصف السطحي. يُستخدم هذا المنهج في تفكيك

الظواهر أو البيانات أو الأفكار المعقدة إلى عناصرها المكونة، لفحصها بشكل نقدي ومنظم.

وفي هذا البحث يقف المنهج التحليلي بنا على تناول عناصر التراكيب بتفريعاتها لنصل في نهاية المطاف إلى ما يعين أو يمكن من تحديد الوظيفة ذات الغاية الأولى في الحديث، وقد عمدنا إلى الاستعانة ببعض صفات المنهج البنيوي أو الوصفي على حد ما يذهب إليه كثير من الباحثين، وذلك عندما تدفع بنا الحاجة إلى وصف الظاهرة التركيبية اللغوية ودلالاتها قبل الدخول في التحليل.

وفي الحديث عما القصد إيجاز القول فيه ننبه إلى ملاحظتين لا مناص ولا مندوحة لنا من التنبيه إليهما، أما الأولى فإن عدم ذكر التركيب الإضافي (رسول الله) في العنوان إنما كان بسبب أن البحث يدور عن العلم (محمد) وحوله وفيه، وأما الثانية فإن عدم النص على الصلاة والسلام في العنوان أيضًا يرجع إلى أننا لو فعلنا ذلك لأصبحنا مطالبين بدراسة العلم والرسول والرسالة وما يتصل بذلك كله في القرآن الكريم وهو ما تنوء بحمله جهود أفراد وإن كثروا، ولن يخالجنا اليأس في أن نجد مؤسسات تنهض بعبء هذا العمل في المستقبل بإذن الله.

تقسيمات البحث:

المقدمة، وفيها: مشكلة البحث، أهدافه أهميته، أسباب اختياره، حدوده، منهجه.

أولا: قراءة معجمية في مادة: ح – م – د–.

ثانيا: آية سورة آل عمران.

ثالثًا: آية سورة الأحزاب.

رابعًا: آية سورة محمد.

خامسًا: آية سورة الفتح.

أولا: قراءة معجمية في مادة ح – م – د–:

نكاد– لولا ما تفرضه علينا محاذير البحث العلمي من عدم استباق الحكم على الأشياء بالإثبات أو ضده بما لا يتناسب مع ما تقضي به العلاقة بين المقدمات وأسبابها ومسبباتها من جهة؛ وما ينتج عن ذلك كله من أحكام علمية من جهة أخرى نكاد –لولا ذلك كله– أن نجزم بأن الوظائف الاجتماعية للغة بكل ما فيها من دور في التواصل تجعلنا نؤمن بفلسفة حرية فهم إنتاج الكلام وفق معرفة تحدد طبيعة التعامل مع اللغة أياً كانت وكيفما تكون.

وإذا علمنا أن لكل لغة خصائصها التي تتفق معها فيها لغات وتختلف لغات أخرى؛ فإن الوظيفة الاجتماعية تظل ثابتة ترفض التغير إلا بما يقدره لها الاختلاف في تنوع الاستعمال، وهنا نصل إلى بداية بغيتنا في الحديث عن أهمية اختيار الأسماء في اللغة العربية –وخاصة اسم محمد–، ذلك الاختيار الذي غالبًا ما تبعث عليه حاجة الناس إلى المطابقة بين لفظ الاسم ومعنى المسمى وعن يقين ابتدائي نقول إن الوظيفة الاجتماعية للغة –في هذا المقام على وجه الخصوص– تعين على دقة اختيار الاسم بصورة تمنحه فرصة الدلالة على المسمى دلالة قطعية تجعلها مرتبطة بإحدى حالتين إما حالة الفضل في التفاؤل وإما حالة القوة في انتساب الاسم على ما تسمية العلاقة الاجتماعية الفخر أو ما في حكمه من مديح وانتساب، وعلى وفق ذلك تقرر فلسفة اللغة العربية أن أسماء الأعلام إما مرتجلة للدلالة على

المسمى وإما منقولة للدلالة عليه[2] بعد نقلها إلى وظيفة العَلمية من وظيفة أخرى، مثل أن ينقل الوصف من وظيفته إلى وظيفة أخرى هي العلمية للدلالة على التفاؤل واحتمال صحة تطبيق مقولة شائعة حاصلها "لكل مسمى من اسمه نصيب" وبلا مقدمات نفترض أن المادة اللغوية ح–م–د– التي اشتق منها وصف (محمد) موضوع بحثنا لينتقل إلى وظيفة أخرى تمثلت في اسم عربي تبادلته الأمة ولا تزال تهفو إلى أن تلوذ به فتسأله أسماءً للأولاد باستمرار دون انقطاع، ولا غرابة فيما يقبل عليه الناس لتسمية أولادهم باسم محمد لدرجة أنهم يتباركون به فيستهلون حياة الرفاء والبنين بتسمية أول الأولاد الذكور محمد لعل في ذلك تشبهًا متواضعًا باسم الرسول الأعظم **(محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم)** وبلا خروج عن موضوعية البحث العلمي نسجل أن لهم في ذلك الحق فيما يريدون، ولمزيد من معرفة دلالة الحمد ومشتقاته نطل عن قرب على ما تقوله بعض المعاجم العربية –قديمها وحديثها– عن دلالة اللفظ بأصله ومشتقاته لننظر بعد ذلك وبه أهمية العلاقة بين الدلالات الأصلية والفرعية وفي حسابنا ضرورة التركيز على علاقة المطابقة أو التناقض إن وجد بين الدال والمدلول.

يقول ابن منظور في لسانه: " –حمد– الحمد نقيض الذم، ويقال: حمدته على فعله، ومنه المحمدة خلاف المذمة، وفي التنزيل العزيز: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾، وأما قول العرب: بدأت بالحمد لله، فإنما هو على الحكاية، أي: بدأت بقول: "الحمد لله رب العالمين".

وقد نقل صاحب اللسان عن ثعلب واللحياني، والأخفش، والأزهري، في معاني الحمد ما نصه" "قال ثعلب: الحمد يكون عن بد وعن غير بد والشكر لا يكون إلا عن بد، وقال اللحياني: الحمد الشكر، فلم يفرق بينهما الأخفش: الحمد لله الشكر لله، قال: والحمد لله الثناء. قال الأزهري: الشكر لا يكون إلا ثناء أوليتها، والحمد قد يكون شكرًا للصنيعة ويكون ابتداءً للثناء على الرجل، فحمدُ الله الثناء عليه، ويكون شكرًا لنعمه التي شملت الكل، والحمدُ أعم من الشكرِ.

والحميد: من صفات الله تعالى وتقدس بمعنى المحمود على كل حال، وهو من الأسماء الحسنى فعيل بمعنى محمود.

والحمد والشكر متقاربان، والحمد أعمها لأنك تحمد الإنسان على صفاته، ومنه الحديث: الحمد رأس الشكر، وما شكر لله عبد لا يحمده.

وبقراءة مفردة الحمد –بمشتقاتها– في اللسان يتضح أنها قد جمعت خلاصة الثناء ونهاية الامتنان للمحمود: أعلاها الثناء على الله العلي القدير، ولا بأس علينا بعد ذلك أن نسير مع هذا المفهوم إلى خلاصة أخرى حاصلها أن النقل من وظيفة إلى وظيفة ومن وصف إلى اسم يشكل عنوان الخيرية والفضل في

---

[2]– انظر:

– أبو حيان الأندلسي: ارتشاف الضرب من لسان العرب، تحقيق رجب عثمان محمد مراجعة رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، الجزء الأول، الطبعة الأولى، 1418هـ– 1998م، ص469.

– ابن عقيل: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ومعه كتاب منحة الجليل، بتحقيق شرح ابن عقيل تأليف محمد محي الدين عبد الحميد، الجزء الأول، دار الفكر للطباعة والنشر بيروت– لبنان، الطبعة الثانية، 1985م، ص124.

– فاضل صالح السامرائي: معاني النحو، دار الفكر، المجلد الأول، الجزء الأول، الطبعة الخامسة، 1432هـ–2011م، ص68.

–ابن هشام: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، ومعه كتاب عدة السالك، إلى تحقيق أوضح المسالك تأليف محمد محي الدين عبد الحميد، المجلد الأول، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ، ص123.

الثناء وفي ذلك كله ما يؤكد أن اختيار الاسم من المادة ح–م–د– يمنح المسمى فضلًا تتوق إليه بقية المسميات[3].

وكنا نستطيع أن نقنع أنفسنا بما وصلنا إليه من نتيجة سلف الإشارة إليها غير أن ما تتميز به اللغة –في حركتها الاجتماعية والمجتمعية– من معان تفصيلية في بعض مواد المعجم تدعونا إلى مزيد فضل يمدنا به الفيروز أبادي من قاموسه المحيط[4]؛ وخلاصة ما فيه أن الأسماء وقبلها الصفات التي مضى الإنتاج اللغوي يشتقها من مادة ح–م–د– لا تخرج أو تبعد عن أحد معان ثلاثة هي: إما قمة الشكر والثناء ؛ وإما سمو فضيلة الحمد التي لا ثناء على الله بدونها؛ وإما أن المعنى يأخذك بطابع الاستعمال اللغوي إلى قولك مثلاً" إنه لحماد لله ﷻ ومنه محمد كأنه حُمد مرة بعد مرة"، ويبدو أن هذه الخلاصة الأخيرة تستطيع أن تحدد لنا معالم العلاقة بين اسم (محمد) والوصف المنقول منه؛ تلك العلاقة التي تجعل اسم محمد بعد النقل مستحقًا لصفات الحمد مرات متتاليات لا تنتهي عند حد إلا عند ذلك الحد الذي يفرضه ويقضي به سياق الكلام وقصد المتكلم.

وعن يد فضلى لمعاجم اللغة كتب المرتضى الزبيدي في تاج العروس كلامًا لم يخرج به عمن سبقوه ولم يخالفهم في شيء أكثر مما فصل فيه بعض قضايا نقلها عن مشايخه؛ وفيها ما يميل به إلى قضايا اختلاف النطق أكثر من تركيزه على المعنى، والحق أن ما جاء به الزبيدي لم يكن نافلة من القول بحكم اشتراكه مع من سواه يدلنا على ذلك ويؤكد صحة ما ذهبنا إليه أنه أخذ للمادة اللغوية من كلام العرب فصل خطاب جديد هو قوله "**ومنه أي: التحميد (محمد) هذا الاسم الشريف الواقع علمًا عليه صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وهو أعظمها وأشهرها (كأنه حمد مرة بعد مرة أخرى**" وهكذا أفرد الرجل فقرة استخلص أصولها من كرامة اسم المصطفى ونبل رفعته في اللغة وهي رفعة لا يمكن للاستعمال اللغوي في مجتمعه أن يتجاوز احترامها وتقديسها على أساس أنه أعظم الأسماء التي سمي بها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأشهرها.

ولم يُغفل المرتضى الزبيدي أسماء رجال عرب سموا في الجاهلية بمحمد فأورد منهم سبعة أسماء هي: "محمد بن سفيان بن مجاشع التميمي، ومحمد بن عتواره الليثي الكناني، ومحمد بن أحيحه بن الجلاح الأوسي، ومحمد بن حمران بن مالك الجعفي المعروف بالشويعر، ومحمد بن مسلمة الانصاري، ومحمد بن خزاعي بن علقمة، ومحمد بن حرماز بن مالك التميمي"[5] وبما ذكره الزبيدي نخلص إلى أن اللغة العربية قد عرفت في مجتمعها– هذا الاسم وأدركت رفعة منزلته وعرفت علو مقامه فسمت به عددًا من أشهر رجالها ولولا خشية الإطالة فيما القصد إيجازه لبحثنا لكل واحد منهم عن ترجمة تكشف عن رفعة مكانته بين قومه وسمو أفعاله في قبيلته.

وعلى منهجيتنا في إعداد هذا البحث نقرر أن ما وجدناه في بعض المعاجم الحديثة للغة لم يخرج عما

[3] – انظر ابن منظور– لسان العرب، د–ت، دار المعارف القاهرة، مادة ح–م–د–

[4] انظر الفيروزأبادي، القاموس المحيط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1309هـ، مادة ح–م–د–

[5]– انظر المرتضى الزبيدي: (محمد مرتضى الحسيني الزبيدي)، تاج العروس، تحقيق الدكتور عبد العزيز مطر، راجعه عبد الستار أحمد فراج– وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، 1414هـ– 1994م، مادة ح–م–د–.

أوردناه مما أفاضت به المعاجم القديمة، وفي ذلك ما يؤكد أن حرصنا على إزالة أي غموض قد يحيط بفكرة البحث لن يكون معيقًا في فهمه، ومن ثم لم نرَ أي حاجة إلى مزيد ما دام التوافق على معاني المادة اللغوية يخضع لمبدأ واحد هو تطور الاستخدام اللغوي وعلاقته بمجتمعه إن في القديم أو الحديث.

قراءة تأمل وتدبر في الآيات التي ذكرت اسم (محمد):

أما الآن فقد فتحنا الطريق وهيأنا السبيل لقراءة اسم (محمد) على نحو ما قضت به ونصت عليه آيات من كتاب الله العزيز القرآن الحكيم، وفي ذلك نبادر فنشير إلى أن اسم (محمد) قد تكرر في الكتاب الحكيم أربع مرات وبحساب اسم السورة رقم (47) التي سميت (محمدا) يكون الاسم قد تكرر خمس مرات على نحو ما سنوضحه بالتدبر في الصفحات الآتية:

ثانيًا: آية سورة آل عمران:

يبدأ ذكر اسم محمد في –القرآن الكريم – بما ورد في الآية الرابعة والأربعين بعد المئة من سورة آل عمران في قول الله تعالت أسماؤه وتباركت صفاته: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ**﴾، يروى أن عمر بن الخطاب (ﷺ) لما وافى رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) الأجل فزع وشهر سيفه يهدد من يقول بوفاة الرسول أو يردد ذلك بأنه سيضرب عنقه، وهو في موقفه ذاك يرى أن رسول الله لم يمت وإنما صعد به الله إليه على نحو ما وقع لعيسى (عليه السلام)، وفي الموقف نفسه خرج أبو بكر (ﷺ) يرد عليه ويخاطب الناس فيقول من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت"(6)، ثم قرأ الآية وساعتها رجع عمر عن رأيه وهدأ روعه وهو يردد صدق الله العظيم كأني لم أسمع بها أو أقرأها قبل اليوم(7)، وفي هذه الآية جاء اسم (محمد) في أسلوب حصر وقصر بما وإلا، خلاصته أن المصطفى (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم) ليس سوى رسول من الله سبقه غيره إلى قومهم، ولما ماتوا لم تمت رسالاتهم أفيصح أن تموت رسالة الخاتم بموته وهو الذي ختمت به النبوة وانتهت إليه وبه الدعوة الخالصة إلى الله الحي الذي لا يموت، وكل يموت.

وبقراءة البنية اللغوية للآية الكريمة يتضح الإعجاز في اختيار أسلوب النفي أن يكون قد أنيط به (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) ما هو أقوى من البشرية أو خارج عنها بحكم أن الرسالة قد اختارته لفضائل أعده الله بها لا تخفى على منصف وذي لب رشيد.

وفي يقيننا أنه (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم) كان قد تعلم من ربه الحرص على أن يؤكد بشريته كما علمه ربه واقرأ إن شئت من سورة الكهف قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾[الكهف:

(6)– **الطبري، محمد بن جرير. جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري).** تحقيق: أحمد محمد شاكر. الطبعة الأولى. القاهرة: مؤسسة الرسالة. (1420 هـ)، **(الجزء 20، صفحة 272–273).**

–وابن كثير، إسماعيل بن عمر. تفسير القرآن العظيم. تحقيق: سامي بن محمد سلامة. الطبعة الثانية. الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع. (1419 هـ)، **(الجزء 6، صفحة 420–422).**

(7)– **محمد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب مرض النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ووفاته، (حديث رقم 4452)، بدون سنة نشر.**

110] وبذلك فإن الفارق بينه وبين صنفه من البشر، أن الله اختاره ليوحي إليه كما اختار من سبقه من الرسل غير أنه (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم) قد حظي من ربه بزيادة فضل هو أنه قد أرسل بالدين الذي لا دين صحيح قبله ولا بعده ولا يجوز الخروج عنه إلى سواه لأنه الصحيح المختار قال تعالى: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾[سورة آل عمران: **19]**

وقال تعالى: ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [آل عمران: **85]**

ومما جاء في تفسير الآية مدار الحديث ما أشار إليه الألوسي –في روح المعاني– هو أن هذا التعبير القرآني بمثابة إعلان حاسم عن بشرية النبي (صلى الله عليه وعلى آله وسلم)، وأنه لا يملك من أمره شيئًا من خصائص الألوهية أو الخلود؛ لأن دوره لا يتجاوز تبليغ الرسالة فقط، ومن ثم فإن هذا المعنى يُقصد به إزالة أي وهم بغلو في شخص الرسول قد يؤدي إلى اعتباره فوق البشر أو فوق سنة الله في الموت.

وفي تفسير الجملة القرآنية "**قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ**": يُوضح الألوسي أن هذه الجملة تذكير بسنة الله الماضية في أنبيائه ورسله، فكما أن الأنبياء السابقين (مثل: موسى وعيسى ويونس...إلخ عليهم السلام) قد أدوا رسالاتهم ثم ماتوا، فإن النبي محمدًا (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم) سيمر بالمصير نفسه.

إن هذا الاستدلال التاريخي يُثبت في الأذهان أن الدين باقٍ حتى لو مات الرسول؛ وأن الاعتماد يجب أن يكون على الله وحده وهو ما أشرنا إليه في بداية الحديث عما حدث بين الخليفتين الراشدين أبي بكر وعمر عقب وفاة الرسول عليه أفضل الصلاة والتسليم.

وخلاصة ما يقرره الألوسي في هذا المعنى أن في الآية رسالة إلهية جاءت لتُصحح ثلاثة مفاهيم أساس هي:

1. إن الموت سنة إلهية ومن ثم فليس من الغرابة في شيء أن يقع على الأنبياء، بل هو سنة إلهية جارية عليهم شأنهم شأن كل حي أينما كان وكيفما يكون.
2. إن الدين الإسلامي ثابت ليس قائمًا على شخص الرسول، بل على رسالة خالدة باقية إلى قيام الساعة.
3. ومما جاء في خلاصة تفسير الألوسي أن في الآية توجيهًا يعيد العبادة إلى وجهتها الصحيحة التي تتمثل في عبادة الله وحده دون سواه؛ سواء أكان رسولًا أم نبيًا أم ملاكًا مهما كان فضله أو تقواه(8).

وعلى نهج ما وجدناه عند الألوسي يسير أبو حيان الأندلسي –في تفسيره البحر المحيط– فيشير إلى أن هذه الآية التي قد نزلت في أعقاب غزوة أحد، عندما انتشر خبر وفاة النبي (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم)؛ وفي تفسيرها وشرحها يُركز على الجانين اللغوي والبياني في الآية، فيُبين كيف أنها كانت بمثابة إعلان حاسم لتثبيت قلوب المسلمين.

وفي تفصيله لما فهمه من معناها يقرر أن في هذا الأسلوب النحوي، –وهو أسلوب الحصر بالحرفين "ما" و"إلا"–ما يفيد –كما قدمنا في بداية الحديث عن هذه

(8) انظر الألوسي: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي: **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1415 هـ / 1994 م، الجزء الثالث، صفحة 124-125 (بتصرف)

الآية– أن وظيفة محمد (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم) مقصورة على الرسالة، فهو ليس إلهًا يُعبد، ولن يكون خالدًا في هذه الدنيا؛ لأن مهمته تقتصر على تبليغ رسالة الله، شأنه في ذلك شأن سائر الرسل.

وقد خص الجملة القرآنية "قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ": بحديث هو أن هذه الجملة تأتي لتُبين أن موت النبي (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم) ليس أمرًا غريبًا أو غير متوقع، فالرسل الذين سبقوه، مثل: موسى وعيسى ويونس عليهم السلام، كلهم أدوا رسالاتهم ثم ماتوا، وبذلك فإن هذه الحقيقة التاريخية والإنسانية تجعل موت الرسول أمرًا طبيعيًا ومألوفًا، وتُزيل الصدمة التي أصابت الصحابة بموته.

وحاصل ما يمكن أن ينتهي به فهم معنى الآية –عند أبي حيان–أن فيها حديثًا عن رسالة إلهية تهدف إلى:

1. تصحيح الفهم بتأكيد أن النبي بشرٌ وأن موته ليس مستبعدًا.
2. تثبيت المؤمنين وتذكيرهم بأن الدين ليس مرتبطًا بشخص الرسول، بل بالرسالة نفسها، وأن الرسالة باقية حتى لو رحل من أرسل بها.
3. إقامة الحجة ببيان أن سنة الله في أنبيائه هي أنهم يبلغون الرسالة ثم يموتون، وهذا لا يُنقص من قدرهم أو من أهمية حقيقة ما جاءوا به[9].

ويقدم محمود الزمخشري في كشافه شرحًا لهذه الآية يركز فيه على الجانب البلاغي بطريقة أخذته إلى الحديث عن كيفية إظهار القرآن لحقيقة النبي (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم)، وأن هذه الحقيقة كانت ضرورية لتثبيت قلوب المؤمنين في مواقف الشدة وفي ذلك يفصل فيؤكد أن قول الله تعالى: "**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ**": الآية قد جاء في أسلوب نحوي هو أسلوب الحصر بـ"ما" و"إلا"، وبه يُفيد أن وظيفة النبي (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم) مقصورة على الرسالة، فهو ليس إلهًا يُعبد، ولا هو خالدٌ في هذه الدنيا، لأن مهمته قد تحددت في مسار واضح هو تبليغ رسالة الله، شأنه في ذلك شأن سائر الرسل. وفي جملة "**قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ**" في الآية نفسها يُشير الزمخشري إلى أن هذه الجملة تأتي لتُبين أن موت النبي (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم) ليس أمرًا غريبًا أو غير متوقع، فالرسل الذين سبقوه، مثل: موسى وعيسى ويونس عليهم السلام، كلهم أدوا رسالاتهم ثم ماتوا. وبذلك فإن هذه الحقيقة التاريخية تجعل موت الرسول (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم) أمرًا طبيعيًا ومألوفًا، وتُزيل الصدمة التي أصابت الصحابة.

وفي خلاصة تفسيره يقرر أن في الآية رسالة إلهية تهدف إلى **تصحيح الفهم**: بتأكيد أن النبي بشرٌ وأن موته ليس مستبعدًا، **وتحرص على تثبيت قلوب** المؤمنين وتذكيرهم بأن الدين ليس مرتبطًا بشخص الرسول، بل بالرسالة نفسها، وأن الرسالة باقية حتى لو رحل صاحبها. وفي الآية إشارة على **إقامة الحجة** ببيان أن سنة الله في أنبيائه هي أنهم يبلغون الرسالة ثم يموتون، وليس في موتهم ما يُنقص من قدرهم أو من حقيقة أهمية ما جاءوا به.

---

[9] – انظر: أبو حيان: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، **البحر المحيط في التفسير**، دار الفكر، بيروت، 1420 هـ / 2000 م، الجزء الثالث، صفحة 223–224. (بتصرف)

أما السيد قطب فقد نحا في تفسير الآية منحًى يكاد يتفرد به عن كثير ممن سواه من المفسرين إذ إنه- بحكم معاصرته للعلوم التي لم يشهدها من قبله- يذهب إلى أن فهم ما جاء فيها لا يجوز أن يقتصر على المعنى اللغوي والتاريخي دون سواهما، بل إن الآية- إلى جانب ذلك- تُركز على الجانب الحركي والتربوي للرسالة الإسلامية، فهو يرى أن هذه الآية ليست مجرد معلومة، بل هي قاعدة أساس لتأسيس العقيدة الإسلامية وتصحيحها.

وتحت ذلك الفهم يشير السيد قطب إلى أن الجملة القرآنية "**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ**": لا تقتصر على مجرد التعبير عن نفي الألوهية عن الرسول (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم) فحسب، بل إن فيها -إلى جانب ذلك- إقرارًا بأن مهمته هي **الرسالة والتبليغ**، وأنه ليس هدفًا لذاته، فالهدف هو: الله، والرسول هو الوسيلة، إن هذا الفهم يحرر قلب المؤمن من التعلق بشخص الرسول بوصفه فردًا بشريًا، ويوجه قلبه إلى التعلق بالله الذي أرسله، وبذلك فإن هذا التحرير ضروري لبقاء الدين بعد وفاة الرسول.

وفي حديثه عن جملة "قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ": يُفسر سيد قطب هذا الجزء بأنه يضع الرسول في سياق سنة الله الجارية على جميع الأنبياء، فالموت ليس أمرًا غريبًا على الرسل، بل هو مصيرهم الطبيعي، إن هذا المعنى يُقصد به إعداد المؤمنين نفسيًا ليستقبلوا حقيقة وفاة الرسول بثبات وقناعة عن يقين بأن الدين باقٍ لا يموت بموت أحد من الناس ولو كان السيد المصطفى المختار عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وأن المعركة مستمرة حتى لو رحل القائد؛ لأن المهم هو **المنهج والرسالة** وليس الشخص.

وفي ختامه لتفسير الآية يخلص سيد قطب إلى أنها قد نزلت لتشكل صدمة إيجابية، أزالت الغبش عن قلوب الصحابة ووجهتهم نحو الحقيقة الكبرى وهي: أن الإسلام منهج رباني باقٍ، لا يموت بموت أحد، وأن التعلق يجب أن يكون بالله ورسالته، وليس بشخص الرسول بوصفه بشرًا، ومن ثم فإن في هذه الآية درسًا تربويًا عميقًا في التحرر من الأفراد والتعلق بالمبدأ[10].

وكما فعل من سبق أن تتبعنا تفسيرهم للآية يقدم محمد بن علي الشوكاني -في تفسيره "فتح القدير"- شرحًا لهذه الآية التي نزلت في غزوة أحد بعد أن أشيع خبر وفاة النبي (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم). يُركز فيه على الجانبين اللغوي والبياني للآية، بالإضافة إلى بيان سبب نزولها. وفي ذلك يؤكد -في المعنى التفصيلي-أن قوله تعالى "وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ": فيرى أن هذا الأسلوب النحوي (أسلوب الحصر بـ"ما وإلا") يُفيد أن النبي محمد (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) ليس إلا رسولًا من عند الله، وليس فيه أو معه أو به من خصائص الألوهية شيء، وأنه ليس خالدًا في هذه الدنيا. لأن دوره يتلخص في تبليغ الرسالة، وليس من صفاته الخلود والبقاء للأبد فهو بشر يعرض له ما يعرض لغيره من حياة ومرض

[10] انظر سيد قطب: سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي، **في ظلال القرآن**، دار الشروق، بيروت، لبنان، 1412هـ/ 1992م، المحكم الثاني، **صفحة 471-472. (بتصرف)**

وموت وصدق الله إذ يقول: ﴿**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ**﴾ [الزمر: 30].

- وفي تفسيره للجملة القرآنية "**قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ**": يؤكد أنها تضع النبي (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم) في سياق الأنبياء السابقين؛ فكما أنهم ماتوا أو قُتلوا بعد أن أدوا رسالاتهم، فمن الطبيعي أن يمر النبي (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم) بالمصير نفسه. ومن ثم فإنه قد كان لهذا المعنى أثر كبير في تثبيت قلوب الصحابة في ذلك الموقف العصيب.

وخلاصة ما انتهى إليه الشوكاني في فهمه وتفسيره للآية أنها نزلت لغرضين أساسين هما:

1. **تثبيت المؤمنين** إذ أكدت لهم أن الدين ليس مرتبطًا بشخص الرسول، وأن الرسالة باقية حتى لو رحل صاحبها.
2. **تصحيح العقيدة** حيث وضحت أن النبي (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم) ليس إلهًا، بل هو بشر يموت كما يموت سائر البشر، مما يقطع الطريق على أي غلو في شخصه.

ويُشير الشوكاني إلى أن هذه الآية تُعد من أبلغ الآيات التي تُصحح المفاهيم وتُثبت الإيمان في قلوب المؤمنين[11].

وبتأمل ما جاء فيما ذهب إليه الخمسة المفسرون نخلص إلى ما يأتي:

1- تركيزهم على علاقة الدين بالله وعلاقة الوحي بالرسول "محمد" صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم بوصفه بشرًا اختصه الله بالرسالة وكل معجزاتها ولم يختصه بأي تفرد عن البشرية عدا ذلك.

2- اهتمامهم بتأكيد أهمية الآية في تثبيت قلوب المؤمنين وتهدئة ما وقع بهم من روع بعد أن انتشرت شائعة قتله في غزوة أحد.

3- بيان ما تضمنه التركيب النحوي من أسلوب حصر وقصر استلزمته ضرورة الفصل بين النبوة بوصفها حالة خاصة لا تقع لأحد من البشر إلا لمن اختارهم الله وأعدهم لذلك على نحو ما عبر عنه القرآن الكريم في خطابه لنبي الله موسى **بقوله تعالى:** ﴿**إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ (40) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي**﴾ **(سورة طه الآيتان 40،41).**

4- أهمية الدعوة إلى الالتزام بالدين لأنه يمثل عقيدة وشريعة باقيتين لا يموتان بموت أحد مهما كان فضله وأياً كانت منزلته.

5- يلاحظ أن الخمسة المفسرين لم يشيروا إلى سبب اختيار اسم محمد في الآية دون غيره من الأسماء والصفات التي امتلأ بها الكتاب العزيز مثل: الرسول، والشاهد، والنبي، والبشير، والنذير... إلخ، وعندنا – والله أعلم– أنه إنما اختار الاسم (محمد) ليقرب إلى الأذهان –بصورة لا تخلو من العاطفة القوية– أن الحبيب إلى ربه والقريب إليه بشر، ولو كان الخلود قد استحق لأحد أو منحه الله لعبد من عبيده لكان ذلك البشر والعبد هو النبي محمد (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم)، ومن ثم فإن الله جل ثناؤه قد بنى تركيبًا نحويًا لغويًا اجتماعيًا يؤكد به وفيه تلك المسافة القريبة القوية بين النبي محمد (صلى الله عليه وعلى

---

(11) انظر الشوكاني: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، **فتح القدير: الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1419 هـ / 1999 م، **الجزء الأول، صفحة 411**. (بتصرف).

آله وصحبه وسلم) وربه الكريم الرؤوف الرحيم، ولو عاد بنا التأمل لوجد أن الخطاب المتصف بالود بين اثنين أو أكثر من مستعملي اللغة يأخذهم إلى مسافة عاطفية تجعل كلا منهما أو منهم يحرص على تكرار ترديد اسم صاحبه ليتمتع بما في ذلك الترديد من حنان وحب يتفاوت بتفاوت التجارب والمواقف فكيف بنا ونحن أمام علاقة متفردة بين الله جل ثناءه وعبده ورسوله ونبيه المصطفى المختار؛ وعند هذه النقطة فقط نؤكد صعوبة ما يمكن أن نحتاج إلى الوصول إليه من حديث يكشف عن الفكرة ويسفر عن كل ما تتصل به من جوانب شخصية واجتماعية لترقى بنا بعد ذلك إلى فهم ما هو أعلى حين يكون القرب متصلًا بين السماوات والأرض اتصالًا لا مجال للموازنة بينه وبين أي اتصال آخر مهما امتلك الكاتب أو المتحدث من براعة القول وفصل الخطاب وناصية البيان ومن يدري فقد نجد أن هذه الملاحظة ستنسحب على ما قاله أولئك المفسرون في فهمهم وتفسيرهم للآيات التي سنواصل الحديث عنها بحثاً عن الدلالة الخاصة باسم محمد في القرآن الكريم وهو ما سنسير في طريق قراته وتدبره في الصفحات القادمة.

ثالثًا: آية سورة الأحزاب:

وهنا تنقلنا القراءة إلى الحديث عن الآية الثانية، وهي الآية الأربعون من سورة الأحزاب في قوله تعالى: ﴿**مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا**﴾ ذلك هو النص أما الفهم والتفسير والشرح فإن الآية تقرر نفي أبوة محمد النبي المصطفى المختار عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم لأحد من المؤمنين أو غيرهم، ولا يمكن لأحد أن يقرر أن الرسول (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم) لم يخلف من صلبه أبناءً لأنه ما إلى ذلك النفي من سبيل إذ قد صح في التاريخ والسيرة أنه خلف أولادًا نعرف منهم (إبراهيم) الذي انتقل إلى جوار ربه في طفولته الأولى وربما أشارت بعض التفاسير إلى أكثر من ولد أو ابن وهو ما سنتطرق إليه في استعراضنا لآراء بعض المفسرين، ومع ذلك فإننا لا نرى حرجًا في أن نفهم أن حكمة الله قد قضت بانتقال من خلفهم من صلبه إلى جوار ربهم قبل أن يكون لهم أبناء، لأنه- والله أعلم- لو حدث أن عاشوا إلى أن يخلفوا لصح أن يثبت للفرد أو للجماعة بعدها ما يترتب على ذلك من أمور بشرية تدفع إلى التفضيل والتمييز بحسب القرابة، ثم واصلت الآية لتستخدم -بعد النفي- حرفي العطف والاستدراك لتؤكد -بما لا يدع مجالًا للشك أنه (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم) المختار لتلقي الرسالة وإبلاغها ليختم به الله النبوة ومسيرة الأنبياء؛ وبذلك لا يتسنى لأحد أن يتنازل عن عقله فيدعي النبوة أو يزعم حقًا له فيها ما دام العلي القدير قد ختمها بمن اصطفاه واختاره لها دون سواه، وبتدبر البنية المركبة من النفي والعطف والاستدراك نفهم أن عدم التشابه بين الأبوة والرسالة لا يقف على مجرد نفي سابق واستدراك لاحق بل إنه يتجاوز هذا إلى درجة أعلى ليثبت بما لا يدع مجالًا لتشكيك أي مشكك في أن الله قد اختاره للرسالة وفضلها له على بقاء أبنائه من بعده أو قل إنه قد قطع الطريق أمام من يرغب في موازنة الأفضلية بين الأبوة والرسالة بأي شكل من الأشكال، وفي ختام الآية جاء التذييل ليقرر أن الله جل ثناؤه يعلم كل شيء علمه أحد من عبيده أو لم يعلمه، وفي سبيل بيان الإحاطة بعلم الله الذي

لا تخفى عليه خافية جاءت الصيغة الصرفية (عليم) لتعلن عن ذلك كله ثم تسمح بفهم نحاول به الربط بين عناصر الآية كلها لنخلص إلى أن الله العلي القدير قد كتب في علمه فضل النبوّة على الأبوة لحكمة إلهية ربما وجدنا طريقًا إليها لنفهم أن خلاصتها تؤكد أنه لو بقي من أبناء النبي أحد خلف أبناءً لأمكن لفرد أو لأكثر توقع أن نجد في التاريخ من يبحث لنفسه عن قداسة أو فضل يزعم به أنه اكتسبه بالتسلسل الذي يوصله إلى أن جده القديم كان ابنًا للمصطفى عليه الصلاة وأفضل التسليم وبالنتيجة يكون الرسول جدًا له على نحو ما كان سيتصوره لنفسه لو صحت أبوته، ولا نرى فيما فهمناه تعارضًا بين انتساب آل رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم) إليه بوصفهم آل بيته وبين ما فهمناه من قطع الطريق على تسلسل الأبوة والبنوة لأن هذا في طريق وذاك في طريق آخر.

وفي الآية ما لا يخفى من حكم تشريعي يحرم التبني الذي كانت قد أشارت إليه الآيتان الرابعة والخامسة من سورة الأحزاب في قوله تعالى: ﴿**مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۖ وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡۚ وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ (4)ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا**﴾، ولحكمة ربانية أخذ الدين الإسلامي بمفهوم التكافل الاجتماعي وجعله أقدر من مسألة التبني لأن هذه ستخلق نوعًا من الصراع الإنساني الذي لا تؤمن نتائجه بين الأبناء من الأصلاب من جهة وإخوانهم المفترضين بالتبني من جهة أخرى، ولقد أصبح نجاح فكرة التكافل الاجتماعي قويًا في إقناع الناس بالعمل بها، وبذلك أضحت تحتل مجالًا واسعًا في الدراسات الاجتماعية بشكل خاص والإنسانية بشكل عام[12].

وفي فهم الألوسي للآية وتفسير سياقها يشير إلى أنها نزلت تحمل توضيحًا لمجموعة من الدلالات والعقائد، إذ يؤكد أن قوله تعالى: "**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ**": قد جاء ليحقق نفي الأبوة الشرعية من النسب عن النبي (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم). وفي ذلك يُوضح أن النفي ليس مقصودًا به عدم وجود أبناء له من صلبه (فقد كان له أولاد ذكور)، وإنما المقصود به أن **ليس أحد من رجاله الموجودين في ذلك الوقت ابنًا له من النسب**، لأن أبناءه الذكور قد ماتوا في صغرهم، وهذا النفي يُبطل حكم التبني الذي كان سائدًا في الجاهلية، ويُبيح زواج النبي من زينب بعد أن طلقها زيد بن حارثة (الذي كان يُدعى ابن محمد).

وفي حديث الألوسي عن تفسير لجملة القرآنية "**وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ**": يشير الألوسي إلى أن هذا الجزء استدراك وتصحيح. بمعنى: أنه إذا كان النبي **صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم** ليس أبًا من النسب، فإنه في المقابل يحمل مكانة أعلى وأجلّ، وهي **رسالة الله**، هذه المكانة تُحدد العلاقة الحقيقية بينه وبين المؤمنين، وهي علاقة الإيمان والاتباع لا علاقة النسب. وفي تفسير عبارة "**وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ**": يُشدد الألوسي على أن

[12]– في مجال التكافل الاجتماعي في الخدمة الاجتماعية من منظور إسلامي وأهميته، ينظر: عبد الرحمن رجب: الخدمة الاجتماعية من منظور إسلامي، المؤتمر الثاني للتوجيه الإسلامي للخدمة الاجتماعية: ميادين ومجالات الخدمة الاجتماعية بنظرة إسلامية – القاهرة، 1993م. المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

هذا التركيب من واو العطف والمضاف والمضاف إليه يُعدّ جوهر الآية، ففيه إقرار بأن النبي محمدًا **صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم** هو **آخر الأنبياء والرسل**، ولا نبي بعده إلى يوم القيامة، وفي ذلك دلالة عظيمة، خلاصتها أنه وكما أن النبوة قد خُتمت به، فإن شريعته هي الشريعة الكاملة التي لا يُزاد عليها أو يُنقص منها، وهي المنهج الأخير للبشرية.

ويُلخص **ويخلص** الألوسي إلى أن الآية قد جاءت لتحقق هدفين رئيسين أحدهما **هدف تشريعي:** يتم به وعلى أساسه إبطال نظام التبني الجاهلي، وإقرار أن الأبوة الحقيقية هي الأبوة بالصلب، والآخر هدف **عقدي:** وهو إثبات خاتمية النبوة لمحمد **صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم**، وتأكيد أن شريعته هي الرسالة النهائية والكاملة[13].

أما أبو حيان الأندلسي فيُقدم –في تفسيره البحر المحيط – شرحًا لهذه الآية يؤكد فيه أنها تُعدّ من الآيات المفصلية في إبطال عادة التبني الذي كان متعارفاً عليه في الجاهلية، ثم يربط الأندلسي في تفسيره بين المعنى اللغوي والبياني للآية من جهة وبين سبب نزولها من جهة أخرى.

- **فيشير إلى أن في قوله تعالى: "مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ"** نفياً للأبوة الشرعية من النسب، ويُوضح أن النفي هنا مقصود به الأبوة الحقيقية التي تُثبت بالولادة، وهذا النفي يُعطي معنى أن زيد بن حارثة، الذي كان يُدعى ابن محمد، لم يكن ابنًا شرعيًا حقيقيًا له، بل كان ابنًا بالتبني فقط، وفي هذا النفي مبدأ شرعي يُبطل به الإسلام نظام التبني الذي كان سائدًا في الجاهلية، ويُقرّ أن الأبوة الحقيقية هي الأبوة بالصلب.
- وفي تفسير قوله جل ثناؤه: **"وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ"**: يشير أبو حيان إلى أن هذا الجزء من الآية يعد استدراكًا وتوضيحًا للمكانة الحقيقية للنبي **صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.** فإذا كان لا يُعدّ أبًا من النسب للرجال، فإنه في المقابل **رسول الله**، وهذه المكانة هي الأسمى والأعلى والأهم، ويشدد الأندلسي على أن العبارة القرآنية **"وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ"**: تُعدّ إضافة عظيمة لأن فيها ما يقرر أن محمدًا **صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم** هو **آخر الأنبياء والرسل**، وهذه الخاتمية تعني: أن رسالته هي الرسالة النهائية التي تُنسخ بها كل الرسالات السابقة، وأن شريعته هي الشريعة الكاملة التي لا يُزاد عليها أو يُنقص منها.

ويخلص الأندلسي في تفسيره للآية إلى أنها رسالة إلهية جاءت لتحقيق هدفين رئيسين **أحدهما هدف شرعي هو إبطال التبني** وإزالة عادة جاهلية تتعارض مع نظام الأسر والأنكحة، والآخر **إثبات الخاتمية** بالتأكيد أن النبي محمدًا **صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم** هو آخر الرسل، وأن شريعته هي الرسالة الكاملة والخالدة[14].

ويبلغ بنا تتبع التأمل والتدبر فنصل إلى ما جاء في كشاف الزمخشري من تفسير لهذه الآية فنجده يقرر أن ما جاء فيها ليس مجرد حكم شرعي فحسب، بل هو إعلان عن حقيقة العلاقة بين المسلمين ورسولهم، وفي هذا المعنى يركز على أن الآية ليست مجرد حكم

[13] انظر: الألوسي، شهاب الدين محمود الألوسي، الجزء الثاني، **صفحة 115-116.**

[14] – انظر: الأندلسي: (أبو حيان) (البحر المحيط) **الجزء الثامن، صفحة 471.**

شرعي، بل هي إلى جانب ذلك إعلان عن حقيقة العلاقة بين المسلمين ورسولهم.

فقول الله تعالى مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ: يمثل نفيًا للأبوة الشرعية من النسب، ويُوضح أن النفي هنا مقصود به الأبوة الحقيقية التي تُثبت بالولادة. وبذلك فإن هذا النفي يُلغي نظام التبني الذي كان سائدًا في الجاهلية، ويُبيح زواج النبي **صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم** من زينب بعد طلاقها من زيد بن حارثة (الذي كان يُدعى ابن محمد). وفي فهمه للجملة القرآنية "**وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ**": يُفسر الزمخشري هذا الجزء بأنه استدراك وتصحيح للمفهوم. فإذا كان النبي **صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم** ليس أبًا شرعيًا لرجال قومه، فإنه في المقابل يحمل مكانة أعلى وأجلّ، وهي **رسالة الله.** هذه المكانة تُحدد العلاقة الحقيقية بينه وبين المؤمنين، وهي علاقة الإتباع والإيمان، ثم يفسر التركيب الإضافي "**وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ**": فيرى أنه تركيب يحمل الدلالة على ما في النص من مفهوم الخاتمة الحاسمة التي تزيد من أهمية معنى الآية؛ ذلك أنه مفهوم يؤكد أن رسالة الإسلام هي الرسالة النهائية، وأن المنهج الذي جاء به النبي **صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم** هو المنهج الأخير، وفي هذا ما سوف يُشكل عبئًا ومسؤولية على عاتق المسلمين لأنهم ورثة هذا المنهج الخاتم، وعليهم تطبيقه وحمله إلى العالم.

وفي نهاية تفسير الزمخشري للآية يخلص إلى القول إنها تأسيس لواقع جديد في حياة المسلمين، وبذلك فإن الروابط القديمة القائمة على النسب تُزال، وتُستبدل بها رابطة العقيدة والرسالة، ويقرر صاحب الكشاف أن في الآية إعلانًا يختص النبي (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم) بالرسالة، وأن رسالته هي الرسالة الخاتمة، وفي ذلك ما يحتم على المؤمنين الالتزام الكامل بمنهجه بوصفه منهجاً كاملاً للحياة[15].

وعلى طريق سابقيه يُقدم سيد قطب في تفسيره في ظلال القرآن نظرة منهجية لهذه الآية، يربط فيها بين إبطال التبني وبين طبيعة الرسالة الإسلامية ويرى أن الآية ليست مجرد حكم شرعي فحسب بل هي إعلان عن حقيقة العلاقة بين المسلمين ورسولهم.

وفي فهمه معنى الآية يقرر أن قوله تعالى: (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ): قد جاء يُركز على إعلان مهم خلاصته تحرير الروابط بين الأفراد؛ لأن العلاقة بين المسلمين ليست قائمة على روابط النسب الجاهلية (مثل: التبني)، بل على رابطة العقيدة والإيمان، وبذلك فإن هذا الإبطال للتبني يُعدّ خطوة أساسًا في بناء مجتمع جديد يقوم على أساس الإيمان لا النسب، أما التركيب المكون من العطف والاستدراك في الآية **(وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ):** فهو –فيما ذهب إليه كتاب الظلال– تعبير يُحدد طبيعة العلاقة الحقيقية بين النبي (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم) وأتباعه، فهو ليس أبًا بمعنى النسب ومفهومه، ولكنه "رسول الله"، أي إن العلاقة به هي علاقة اتباع لمنهج الله الذي جاء به، وليست علاقة أبوة شخصية، ويرى سيد قطب أن التركيب من حرف العطف والمضاف والمضاف إليه **(وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ):** يشكل خاتمة حاسمة تزيد من أهمية معنى الآية بما يعلنه وهو أن رسالة الإسلام هي الرسالة النهائية، وأن المنهج الذي جاء به النبي (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم) هو

[15] انظر: الزمخشري، (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل)، الجزء الرابع، الصفحة 343.

المنهج الأخير، وفي ذلك ما يحمل المسلمين مسؤولية عظيمة بوصفهم ورثة هذا المنهج الخاتم، وعليهم تطبيقه وحمله إلى العالم.

ويخلص سيد قطب –في تفسيره– إلى أن معنى الآية يؤسس لواقع جديد في حياة المسلمين حاصله أن الروابط القديمة القائمة على النسب لا بد أن تُزال، وتُستبدل بها رابطة العقيدة والرسالة، وفي الآية إعلان مفاده أن النبي رسول، وأن رسالته هي الرسالة الخاتمة، وبهذا الإعلان يلتزم المؤمنون التزامًا كاملًا في حياتهم دون إفراط أو تفريط[16].

ولم يبعد الشوكاني عما ذهب إليه من قدمنا تفاسيرهم فهو يؤكد أن الآية تعد حاسمة في إبطال نظام التبني الجاهلي، ويربط الشوكاني بين سبب نزول الآية (وهو زواج النبي من زينب بعد طلاقها من زيد بن حارثة) وبين الأحكام الشرعية والدلالات العقدية التي تحملها. **وعلى طريقة أولئك الذين سبق لنا أن أوردنا أحاديثهم يفصل فهمه للآية فيشير إلى أن في قوله تعالى: (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ)** نفيًا قاطعًا للأبوة الشرعية بين النبي (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم) وأي من الرجال الذين عاشوا في عصره، بما في ذلك زيد بن حارثة الذي كان يُدعى زيد بن محمد، وهو نفي يُلغي حكم التبني الذي كان سائدًا في الجاهلية، ويُبين أن زيدًا لم يكن ابنًا حقيقيًا للنبي من صلبه، ثم يعرض الشوكاني ما فهمه من تركيب العطف والاستدراك في قوله تعالى: **(وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ)** فيرى أن هذا التعبير الإلهي يُعدّ استدراكًا وتصحيحًا للمفهوم، فإذا كان النبي (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) ليس أبًا شرعيًا لأحد من رجال قومه، فإنه في المقابل **رسول الله**، وهي مكانة أعلى وأجلّ من أي رابطة نسب؛ ذلك أن هذه الرسالة هي التي تُحدد طبيعة العلاقة بينه وبين المؤمنين، وهي علاقة الاتباع والإيمان، وفيما ذكرته الآية من أن محمدًا رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم) خاتم النبيين يقرر الشوكاني أن هذه الجملة تعد جوهر ما جاء في الآية؛ ذلك أنها تحكم بحكم قطعي هو أن النبي (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم) **آخر الأنبياء والرسل** على الإطلاق، وفي ذلك ما فيه من دلالة عظيمة تضع موازنة تكاملية بين النبوة وختامها بمحمد من جهة والشريعة الخاتمة التي تُبطل ما قبلها من الشرائع وتُتممها من جهة أخرى، وفي ذلك وعلى وفقه تشريع يُلزم المسلمين بالاعتماد على سنة رسول الله وشريعته المنزلة إلى قيام الساعة.

وفي ختام حديث الشوكاني–في تفسير الآية– يخلص إلى أنها قد حملت حلًا إلهيًا لمشكلة اجتماعية هي مشكلة التبني، وعلى وفق ذلك تم إقرار حكم شرعي بإباحة زواج الرجل من زوجة من كان يتبناه بعد طلاقها، وبالمقابل حملت الآية دلالة عقدية كبرى، هي إثبات **خاتمية النبوة** لمحمد (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم)، وفي ذلك ما يؤكد أن شريعته قد حملتها الرسالة النهائية والكاملة بما اختصها الله من كمال[17].

وبختام استعراض ما جاء به الخمسة المفسرون نخلص إلى ما سبق أن خلصنا إليه –في هذا الحديث– أكثر من مرة وحاصله أنهم جميعًا يكادون

[16] انظر: سيد قطب، مرجع سابق، المجلد الخامس، صفحة 2898–2900.

[17] انظر الشوكاني، مرجع سابق، الجزء الرابع، 381–382.

ينفذون من مشكاة واحدة لا تختلف إلا في بعض صياغات أو إشارات قليلة إلى ما يتميز به التركيب القرآني من تراكيب نحوية دقيقة وأساليب بيانية واضحة تبعث على الإعجاب بما يتميز به القرآن من إعجاز مطلق كبير هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن اسم العلم (محمد) لم يحظَ اختياره الإلهي منهم بأيّ إشارة تفسر سبب ذلك الاختيار والعدول إليه عن أي اسم آخر من الأسماء أو صفة من الصفات وهو ما سبق أن أشرنا إليه بتفصيل أكثر في الحديث عن تفسير آية آل عمران.

رابعًا: آية سورة محمد:

وفي السورة التي حملت اسمه (سورة محمد) ذكر الاسم مرتين الأولى في اسم السورة ولا مجال للحديث عن أي دلالة للاسم في ذلك المكان لأنه لم يحمل سوى وظيفة العنوان على شاكلة ما تعودناه في أسماء سور القرآن الكريم وعناوينها إذ نجد أن كثيرًا من السور قد أخذت بعض كلمات من آياتها فجعلته اسمًا لها أو عنوانًا عليها، مثل: البقرة وآل عمران والمائدة والأنعام والأعراف وغير ذلك كثير، أما المرة الأخرى فقد وردت في الآية الثانية من السورة نفسها في قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ**﴾، وبالقراءة والتأمل والتدبر نخلص إلى أن واو العطف الذي بدأت به الآية يقود إلى موازنة بين الذين كفروا فيما نصت عليه الآية الأولى والذين آمنوا بما نصت عليه الآية التي تليها فأولئك صدوا عن سبيل الله فعوقبوا بضلال أعمالهم، وهؤلاء آمنوا بما نزل على المصطفى المختار محمد (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم) فكان جزاؤهم –بعد أن عرفوا الحق من ربهم– أن كافأهم الله ربهم بتجاوز السيئات ومغفرة الذنوب وأصلح لهم بالهم، وعلى الرغم من أن الموازنة لا تعنينا كثيرًا فإنه كان لا بد من لمحها بحديث موجز لنصل إلى ما نريد إبرازه؛ وهو أن الآية التي ذكر فيها اسم (محمد) قد حرصت في نصها على أن تسفر عن خصائص الذين آمنوا بما نزل عليه في ثلاث خصائص هي:

1- إيمانهم المطلق عن قناعة لا تشوبها أي شائبة بما نزل عليه وبالنتيجة المنطقية نقرر أن إيمانهم بما آمنوا به لم ولن ينفصل عن إيمانهم بالمنزل والمنزل عليه.

2- عمل الصالحات المقترن بالإيمان اقترانًا دلت عليه واو العطف (وعملوا الصالحات) بما يؤكد أن الخاصيتين مقترنتان في الفعل والمفهوم والدلالة والأسلوب.

3- إيمانهم الخاص بما جاء في الوحي الذي نزل على محمد وهو إيمان لا ينفصل معناه ولا تنفصم عراه عن الإيمان المطلق الذي أشرنا إليه قبل سطور.

وفي الختام يعلن النص الكريم نتيجة النجاح في قوله جل ثناؤه: **(كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم)**، وعلى وفق هذه العلاقة المترابطة المتواشجة تم اختيار الاسم (محمد) للدلالة على أنه ما من اسم آخر أو صفة أخرى تحكم العلاقة بين الإيمان وما تم الإيمان به من جهة والإيمان بمن أنزل إليه وما أنزل عليه من جهة أخرى، وعن إيمان منا بما فهمناه نؤكد أن اختيار الاسم (محمد) المشتق من الحمد وفضائله هو الكفيل بضمان التعبير عن هذه العلاقة الحميمة بين رب العزة والجلال من ناحية وعباده المؤمنين بمن فيهم النبي المصطفى المختار من جهة أخرى، وبما أننا سلمنا بأن كل كلمة في القرآن الكريم قد وضعت بفعل إلهي يجعلها الأولى والأحق من غيرها فيما تم اختياره لها من مكان نقرر أن اختيار اسم (محمد) هنا قد جاء ليحقق غاية العلاقة بين أطرافها الثلاثة: (الله ورسوله

والمؤمنين) بشكل يؤكد إحدى صور الإعجاز القرآني في صورة أخرى من صوره التي عرفها المنصفون من المفكرين هنا أو هناك.

وبخلاصة ما انتهينا إليه فيما فهمناه ننتقل إلى ما أورده المفسرون المختارون من معانٍ للآية قد يتفق وربما يختلف مع ما ذهبنا إليه ولا بأس من ذلك أو فيه فالقرآن حمال أوجه ومن ثم فهو يسمح بتعدد التفاسير وتنوع الأفهام، وتأسيساً على ما انتهجناه من طريقة في دراسة ما سبق من الآيات نأتي على الألوسي ونستأذنه في أن يدلنا على ما فهمه من تفسير لهذه الآية فنجده يشير إلى أن المؤمنين الصادقين هم الذين جمعوا بين ثلاثة أركان أساس هي التي سبق أن اخترنا لها لفظ الخصائص، ثم يفصل فيشرح التركيب من حرف العطف والاسم الموصول وصلته "**وَالَّذِينَ آمَنُوا**" فيرى أن هذا الجزء من الآية يُشير إلى الإيمان بالله وبأصول العقائد بشكل عام، وهو أساس الدين.

وفي حديثه عن معنى الجملة المعطوفة "**وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**" على جملة الصلة يُوضح أن في الجملة ترجمة الإيمان إلى واقع عملي، وأن الإيمان بدون عمل ليس إيمانًا كاملًا، لأن الأعمال الصالحة هي دليل على صدق الإيمان وكماله، ولا يزال العطف متواليًا لنصل إلى قوله تعالى: "**وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ**" فنجد الألوسي يؤكد أن هذا الجزء قد جاء ليدل على **تخصيص بعد تعميم**، لأن الإيمان بما نُزِّل على محمد (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم) (القرآن والسنة) هو إيمان مفصل ضروري لا يصح الإيمان بدونه، وبذلك فإن هذا التخصيص يُبين أن الإيمان بالله وحده لا يكفي، بل يجب أن يكون مقترنًا بالإيمان برسالة محمد (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم)، أما حديثه عما فهمه من الجملة "**وَهُوَ الْحَقُّ**" ففيه يُؤكد أن فيها إشارة إلى أن ما جاء به النبي محمد (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم) هو الحق الثابت الذي لا يأتيه الباطل من أي جهة، ومن ثم فإن هذا التوكيد يزيد من ثقة المؤمن برسالة المصطفى، ويُبطل كل ما عداها من الأديان والشرائع.

وفي ختام تفسيره للآية يخلص الألوسي إلى أن معناها قد جاء يُثني على المؤمنين الذين جمعوا بين الإيمان القلبي بالله، والعمل الصالح بالجوارح، والإيمان بالتنزيل الذي جاء به النبي محمد (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم)، مؤكدًا أن هذا التنزيل هو الحق؛ وعلى ذلك فإن جزاء هؤلاء المؤمنين هو أن الله سيُصلح بالهم، أي: سيُصلح أحوالهم في الدنيا والآخرة، ويُثبتهم على الحق ويهديهم إلى جنات النعيم[18].

ولأبي حيان الأندلسي– في بحره المحيط– تفسير يأخذنا به إلى ما وجدناه عند الألوسي مع بعض اختلافات بسيطة تتضح في حديثه الذي بدأه بالإشارة إلى أن هذه الآية تؤكد أن الله تعالى يُبطل أعمال الكفار ويُصلح بال المؤمنين وفي ذلك يُبرز أبو حيان النقاط الآتية:

1- إن الموصول وصلته بعد حرف العطف (وَالَّذِينَ آمَنُوا) تركيب يتضح به وفيه أن المؤمنين هم الذين صدّقوا بالله ورسوله وآمنوا بما صدّقوا به.

[18] – انظر: الألوسي، مرجع سابق، الجزء 26، صفحة 10–11.

2- **وفي التركيب المماثل "وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ"**: يُبين الأندلسي أن الإيمان لا يكتمل بدون العمل الصالح، لأنه شرط أساس لا يكتمل الإيمان إلا به.

3- **وفي قوله تعالى: "وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ"**: يرى الأندلسي أن هذا الجزء قد جاء ليؤكد أهمية الإيمان بما جاء به القرآن، ويُشير إلى أن هذا التخصيص بعد التعميم يدل على أهمية الإيمان بما جاء به الرسول محمد (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم)، وأنه لا إيمان بشيء يخرج بصاحبه عن هذا الإيمان.

4- **وفي تفسيره جملة "وَهُوَ الْحَقُّ"**: يُشدد الأندلسي على أنها قد جاءت لتشكل تأكيد يقين صحيح وصريح هو أن ما جاء به القرآن هو الحق الذي لا يُداخله الباطل لا من قريب ولا من بعيد.

ويخلص أبو حيان إلى أن هذه الآية تصف المؤمنين الصادقين بثلاث صفات أساس هي:

الإيمان بالله، والعمل الصالح الذي يترجم الإيمان إلى واقع عملي، والإيمان الخاص بما نُزِّل على النبي محمد (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم)، **وهو القرآن الكريم، لأنه الحق الذي لا يُنازع.**

ثم يؤكد أن الله سيُصلح بال هؤلاء المؤمنين، وكل ما يتصل بشأنهم وأحوالهم في الدنيا والآخرة، ويُثيبهم على إيمانهم وعملهم الصالح[19].

ويقدم محمود الزمخشري في كشافه تحليلًا دلاليًا بلاغيًا دقيقًا لهذه الآية فيرى أنها تُشير إلى أن المؤمنين الصادقين قد جمعوا بين الإيمان العام والإيمان الخاص، لأن هذا هو سبب صلاح أحوالهم. ثم يفصل تفسير كل تركيب في الآية فيبدأ بالحديث عن تركيب الموصول والصلة بعد واو العطف **"وَالَّذِينَ آمَنُوا"**: فيؤكد أن فيه حديثًا عن إيمان عام بالله وبأصول العقيدة وهو إيمان يشكل أساس كل عمل صالح، وفي حديثه عن التركيب **"وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ"**: يرى الزمخشري أن في هذا الجزء بيانًا حاصله أن الإيمان لا يكون مجرد تصديق بالقلب، بل هو مُقترن بالعمل الصالح، فالإيمان والعمل الصالح متلازمان، ولا يصح أحدهما دون الآخر، وفي الأثر المنسوب إلى الحسن البصري يقول: "ليس الايمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل[20]، ثم يصل إلى تفسير قوله تعالى **"وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ"**: ليُركز على أهمية تكرار كلمة "آمنوا" فيبين أن الإيمان الخاص قد جاء بعد الإيمان العام، وهو **إيمان تفصيلي بالقرآن الكريم** الذي نُزِّل على النبي محمد (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم)، وفي التكرار منحى بلاغي يفيد التعظيم، ويُشير إلى أن الإيمان برسالة الإسلام هو الشرط الأساس الذي يُميز المؤمنين من غيرهم، وفي ختام تفسيره للآية يقف عند جملة **"وَهُوَ الْحَقُّ"**: فيرى أنها جملة اعتراضية جاءت لتضيف إلى المعنى صورة بلاغية تؤكد حقيقة القرآن بأنه الذي نُزِّل على محمد هو الحق المطلق الذي لا يأتيه الباطل بأي حال من الأحوال.

ثم يخلص الزمخشري –في تفسير هذه الآية– إلى القول: إنها تُحدد معالم المؤمنين الحقيقيين الذين يستحقون الفوز، وهم الذين:

1. صدقوا بقلوبهم.
2. عملوا بجوارحهم.

[19] – انظر: الأندلسي، مرجع سابق، الجزء التاسع، الصفحة 504.

[20] – أبو نعيم: أحمد بن عبد الله الأصفهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتب العلمية، بيروت، (د. ت)، الجزء الثاني، ص146.

3. آمنوا تحديدًا بما نزل على محمد (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم)، لأنه الحق الذي ليس قبله حق يضاهيه وليس بعده صدق يوازيه.

ثم يؤكد أن الله جل ثناؤه سيكافئهم على ذلك فيُصلح بالهم ويُحسن شأنهم وأحوالهم، ويهديهم ويُوفقهم إلى كل خير وفلاح في الدنيا والآخرة[21].

ولم يبعد سيد قطب كثيرًا عن المنهج التقليدي للتفسير إلا بنظرة مختلفة اختلافًا بسيطًا يركز فيه على الجانبين الحركي والمنهجي للآية، فيرى أن فيها جزءًا من سياق الصراع بين الحق والباطل، وهو صراع يأخذه صاحب الظلال من الموازنة بين الكفار والمؤمنين في الآيتين الأوليين من السورة، ثم يفصل حديثه عن الآية الثانية فيبدأ بشرح قوله تعالى: **(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)**: فيرى أن الإيمان والعمل الصالح هنا هما الأساس، وهما جوهر المنهج الذي يتبعه المؤمنون، ذلك أن الإيمان ليس مجرد اعتقاد خال عن كل ما يتصل به من صفات في العمل والاقتداء، بل إنه طاقة تدفع صاحبها إلى العمل الذي يُثبت صدق الإيمان، ومن صفات المؤمنين أنهم آمنوا بما أنزل على محمد وفي إيمانهم بذلك **مفتاح لتمييزهم من سواهم وانتسابهم إلى ما آمنوا به، وحسبهم من ذلك أن إيمانهم** برسالة محمد (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم) يمثل لهم خلاصة عقد يربطهم بالجماعة المسلمة، ويُميزهم من الكافرين، وعن يقين يجمعنا بسيد قطب هو أن هذا الإيمان ليس فقط بالقرآن، بل بالمنهج النبوي الكامل.

ويرى سيد قطب في تفسيره لجملة **(وَهُوَ الْحَقُّ)**: أنها جملة لم تأت لمجرد تأكيد ما سبق فحسب، بل إنها – إلى جانب ذلك– تشكل **بيانًا حاسمًا لطبيعة هذا المنهج الذي يشير إلى أن ما** نُزِّل على محمد هو الحق المطلق، وكل ما عداه من مناهج وعقائد هو الباطل، وعلى أساس ما جاء في هذا كله من تصريح واضح نجد معنى يُلزم المؤمن بأن يرى الحق في منهجه فقط، وأن يعيش به ويدعو إليه ويُجاهد في سبيله.

و يقرر سيد قطب أن هذه الآية تُحدد بوضوح معالم الفئة المؤمنة التي ستنتصر في النهاية، بأنها الفئة التي لا تكتفي بالإيمان النظري، بل تترجمه إلى عمل، وتلتزم بالمنهج الكامل الذي جاء به محمد (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم)، لأنه المنهج الحق وحده، بالإضافة إلى أن في الآية إعلانًا واضحًا عن هوية الجماعة المسلمة ورسالتها في الحياة، وأنها ليست مجرد عقائد فردية، بل هي منهج حياة كامل كمالًا لا ينازع في صحته وسلامة سيره منصف ذو عقل رشيد ورأي سديد[22].

وتبلغ بنا مسيرة القراءة إلى ما جاء به الشوكاني في فتح القدير من شرح للآية وتفسيرًا لتراكيبها النحوية واللغوية والبيانية فيشير إلى أنها تميز المؤمنين من الكافرين الذين تحدثت عنهم الآية الأولى من السورة، ويرى أنها تُبين خصائص المؤمنين الصادقين وصفاتهم التي جمعت لهم بين ثلاثة أركان أساس يفصل الحديث عنها في شرحه فيبدأ بالحديث عن معنى التركيب القرآني **(وَالَّذِينَ آمَنُوا)** فيقرر أنه

[21] انظر: الزمخشري، مرجع سابق، الجزء الرابع، الصفحة 304.

[22] انظر: سيد قطب، مرجع سابق، المجلد السادس، الصفحة 3236–3237.

أسلوب لغوي يركز على الإيمان بالله، واليوم الآخر، وسائر أركان الإيمان التي يجب على المؤمن أن يُصدق بها قولًا وعملًا، ثم يربط ذلك بالحديث عن تركيب آخر هو قوله تعالى **(وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)**: فيقرر أن هذا التركيب يعد ترجمة الإيمان إلى واقع عملي، لأن الإيمان لا يكتمل إلا بما يترتب عليه من أعمال صالحات، ومن ثم فإن الإيمان بدون عمل يصبح ناقصًا يحتاج إلى ما يبلغ به درجة الكمال والاكتمال، وبالجملة فإن الأعمال الصالحة تعد دليلاً على صدق الإيمان وكماله واكتماله.

أما عن قوله تعالى: **(وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ)**: فإن الشوكاني يؤكد الحق لكل من فهم أن في هذا التركيب تخصيصًا جاء بعد تعميم على أساس أن الإيمان بما نُزِّل على محمد (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم) –وهو القرآن والسنة– إيمان مفصل ضروري لا يصح الإيمان بدونه؛ وعلى ذلك فإن هذا التخصيص يُبين أن الإيمان بالله وحده لا يكفي، بل يجب أن يكون مقترنًا بالإيمان برسالة محمد (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم)؛ ذلك أن ما جاء من عند الله وأنزله بوحي على رسوله محمد (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم) هو الحق الثابت الذي لا يأتيه الباطل من أي جهة، وفي هذا التأكيد ما يزيد من ثقة المؤمن في رسالته، ويُبطل كل ما عداها من الأديان والشرائع.

وخلاصة ما ذهب إليه الشوكاني في تفسير الآية تتمثل في إشارته إلى أنها تُثني على المؤمنين الذين جمعوا بين الإيمان القلبي بالله، والعمل الصالح بالجوارح، والإيمان بالتنزيل الذي جاء به النبي محمد (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم)، مؤكدًا أن هذا التنزيل هو الحق، ومن ثم فإن جزاء هؤلاء المؤمنين هو أن الله سيُصلح بالهم وأحوالهم في الدنيا والآخرة، ويُثبتهم على الحق ويهديهم إلى جنات النعيم[23].

وبعد ذلك كله نؤكد أن ما ذهب إليه الخمسة المفسرون يقترب بعضه من بعض ولم يبعد أحدهم عن الآخر فيما ذهب إليه إلا ببعض اختلاف في التعبير أو بعض اهتمام بقضية أكثر من سواها مثل الوقوف عند إشارة بلاغية أو لفتة لغوية تبعد صاحبها لحظات ما تكاد تمر حتى تنتهي ليعود بعد ذلك إلى ساحة أصحابه وزملاءه، ليتفقوا على معنى عام حاصله التمييز بين كفار أنكروا الحق ومؤمنين عرفوا طريقه واتبعوه وساروا على نهجه بالقول والفعل والعمل فنالوا من ربهم خير الفضل وأحسن الجزاء وأفضل الثواب ومع ذلك فلن نمل من أن نُبدئ ونعيد القول فيما سبق أن ذهبنا إليه وهو أن المفسرين الخمسة على الرغم من أنهم من أعلام أصحاب التفسير بالدراية – لم يلتفتوا أو يحفلوا أو يهتموا بالحديث عن سبب اختيار الاسم (محمد) وتفضيله في الآية عن ما سواه من الأسماء والصفات التي حظي بها محمد (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم) في القرآن الكريم وما كان في الأمر من عسير عليهم لو أنهم وظفوا الموازنة بين فئتين ذكرتهما الآيتان الأولى والثانية من السورة نفسها، نقول: لو أنهم فعلوا ذلك لوجدوا أن اختيار اسم (محمد) قد جاء لينسجم مع العلاقة التي تربطه وتوصله بالفئة الثانية وهي فئة المؤمنين تلك العلاقة التي أنتجت حبًا لم ولن تجد له الحياة نظيرًا، وحسبك من ذلك أنه مرتبط بقرب إلهي أدى إلى اختياره في النص دون سواه من الأسماء والصفات.

[23] انظر: الشوكاني، المرجع السابق، الجزء الخامس، الصفحة 18.

خامسًا: آية سورة الفتح:

وفي آخر سورة الفتح تأتي الآية التاسعة والعشرون لتبدأ بجملة اسمية المبتدأ فيها اسم محمد عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم وهي قوله تعالى: ﴿**مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا**﴾ إن في التركيب النحوي والبياني للآية تسارعًا في إيقاع الأداء بشكل يبعث على قوة شوق لمتابعة ما جاء بعد المبتدأ (محمد) من ذكر للذين معه في عصره أو في العصور التي ستأتي بعده؛ وهي معية استشفعت بصفة الرسالة وجعلتها طريقًا تعبره إلى أن تنال شرف صحبة كل أولئك القوم لهذا النبي الخاتم بشكل يمكنهم من أن يكونوا على نهج من اتبعوه أشداء على كل من تنكبوا طريق الحق وخرجوا عنها إلى سبيل الضلال، وبالمقابل نجد في الآية روحًا قوية تعبر عن علاقة محمد والذين معه بعضهم ببعض وهي علاقة التراحم التي لا مجال للتعبير عنها بوضوح وجلال ما لم تُصدر بالاسم العلم (محمد) ولا سبيل إلى معرفة أهمية ذلك التراحم دون مراقبة صورة المشهد الإيماني العظيم بكل ما فيه من صلات دينية إيمانية وإنسانية خضعت إلى موازنة دقيقة بين قوتين إحداهما قوة الحب والعاطفة والتراحم والأخرى قوة الحزم والحسم وهي القوة التي بدأت بها الموازنة بمنطقية تجعل الشدة على الكفار طريقًا إلى معرفة التراحم بين المؤمنين وعلى رأسهم سيدهم وسيد إيمانهم محمد (صلى الله عليه وعلى آله وصحبة وسلم)، ولن يتملكنا أي عجب إذا ما وجدنا اللغة تتقاصر عن إدراك أي وصف يدعي لنفسه القدرة على الإحاطة بكل ما تحمله تلك العلاقة من معان يعجز أن يجود بها كل تعبير بشري مهما توفر له من ناصية البيان، وحسبنا من ذلك أن الآية اختارت اسم العلم (محمد) لتعبر عن قوة روح العاطفة بينه وبين أصحابه من المؤمنين من جهة وقوة العزم والشدة والغلظة على الكفار من جهة أخرى.

ثم تواصل الآية ذكر أهم خصائص القوم المؤمنين بأنهم يحسنون التعامل مع ربهم في القوة والغلظة على أعدائهم وفي التراحم اللامتناهي بينهم، وهو تراحم نرى أثره فيما تعودوا عليه من خشوع في تقربهم إلى الله بالركوع والسجود اللذَين لا يخفى أثرهما على هذه الفئة بجانبيه المادي فيما يتركه من أثر على وجوههم والروحي المعنوي بما يغرسه في نفوسهم من خشوع روحاني لا نظير له عند غيرهم بأي حال من الأحوال، وبالجملة فإنه لا غاية لهم من عداوة الكفار من ناحية والتراحم بينهم من ناحية أخرى، وما تلا ذلك من وصف للركوع والسجود سوى طلب الفضل والرضوان –وهو الأعلى والأقوى– من ربهم الذي لن يترهم أعمالهم ولن يضيع جهودهم التي أظهرتها تلك السمات، وبعد ذلك تواصل الآية الحديث عن أنهم قد ذكروا بصفاتهم وخصائص أحوالهم في التوراة عند موسى وفي الإنجيل عند عيسى ليجعل الله منهم أمثلة تنال من الكفار بالغيظ الشديد كالزرع الذي يعجب أهله بما خرج فيه من ثمر إيماني يغيظ الكفار وينال منهم بما لا يستطيعون له ردًا ويبقى غيظًا في الصدور، وفي ختام الآية جملة فعلية تعلن عما لهم

عبد ربهم من مغفرة لا وصف لها لأنها المغفرة المطلقة وأجر آيته وعلامته أنه عظيم لا يناله غير من يستحقه وهم أولئك المؤمنون الذين تكفلت الآية بوصف خصائصهم متدرجة من خاصية إلى خاصية أقوى وإلى ما هو أقوى منها والله يضاعف لمن يشاء.

وفي تفسير الألوسي للآية يرى " أن الصفات التي نصت عليها الآية ليست مجرد وصف لجيل الصحابة، بل هي علامة للمؤمنين الصادقين في كل زمان ومكان، ويشير إلى أن فيها ثناءً بليغًا على النبي محمد (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم)، كما أنها تركز على ذكر صفاتهم الجليلة، ويؤكد أنها تضمنت صفاتهم في الجانب العملي (الجهاد والمعاملات)، والجانب التعبدي، والجانب الخُلُقي (الرحمة).

وبعد ما جاء في حديث الألوسي عن الآية من إجمال يفصل قراءته لها فيبدأ بالحديث عن التركيب المكون من المبتدأ والصفة "**مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ**" فيقرر أن في هذا التركيب إخبارًا وتصديقًا إلهيًا بالرسالة، لأنها تمثل الأساس الذي بُنيت عليه صفات أتباعه.

وفي قراءته للتركيب المكون حرف العطف والاسم الموصول وصلته "**وَالَّذِينَ مَعَهُ**" يذكر أن الذين مع محمد الرسول هم الصحابة الكرام الذين آمنوا به واتبعوه، وقد جاءت الآية تصفهم بأنهم يجمعون بين صفتين متكاملتين الأولى شدتهم على الكفار أي أقوياء ذوو عزة وغِلظة في مواجهة الكفار والمشركين الذين يعادون الدين. وهي –كما يرى الألوسي– شدة مطلوبة في مقام الجهاد والمدافعة، أما الصفة الثانية "**رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**" فإنها تعني أنهم متوادّون ومتعاطفون ومتحابون فيما بينهم، وهنا يؤكد الألوسي أن هذا التوازن بين الشدة الخارجية والرحمة الداخلية يعد سر تماسكهم وقوتهم.

وفي حديثه عما يتصفون به من تعبد روحي "**تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا**" **يرى أن** التركيب يصف حالهم الدائم في الصلاة، فهم **مُلازمون للركوع والسجود**، وهي دلالة على كثرة صلاتهم وتعبّدهم لله عز وجل، وليس لهم من غاية سوى ابتغاء رضوان الله وهي غاية لا تقتصر على طلب الدنيا فحسب بل إنها –إلى جانب ذلك– تعبر عن رغبتهم **في** طلب **الرزق الواسع (الفضل)** وطلب **رضا الله سبحانه (الرضوان)**، ويرى أن طلب الرضوان أعلى وأجلّ من طلب الفضل، وفي الحديث عما يتركه السجود من أثر تظهر علاماته على وجوههم يفسر (السيما) بأنها علامة تحمل معنيين، الأولى **علامة حسية تظهر على** الجباه من كثرة السجود، والأخرى **علامة معنوية** تعرف ب**الخشوع والوقار ونور الإيمان** الذي يظهر على وجوههم بسبب الطاعة والإخلاص في العبادة، وعنده أن الثاني هو الأرجح الذي لا ينتفي معه القول بالأول.

ثم ينتقل الألوسي إلى الحديث عما جاء من وصف لهؤلاء المؤمنين –مع نبيهم رسول الله– في الكتب السماوية السابقة "**ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ**"؛ فيرى أن ما سبق ذكره عن صفاتهم في الأجزاء السابقة من الآية ("أشداء على الكفار، رحماء بينهم، ركعًا سجدًا...") إلخ قد جاء وصفًا لهم في كتب اليهود، وعند المسيحيين، كل ذلك شكل منهم مثلًا فيه تشبيه بلاغي بديع، يرى فيه الألوسي وصفًا لتطور الجماعة الإسلامية على النحو الآتي:

1. **كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ**؛ أي: كزرع أخرج فَرَخه وجانبه الضعيف (وهو إشارة إلى قلة الصحابة في بدء الدعوة).

2. **فَآزَرَهُ**؛ أي: قواه وشدّ ظهره (إشارة إلى تقوي بعضهم ببعض).
3. **فَاسْتَغْلَظَ**؛ أي: صار غليظًا وقويًا (إشارة إلى ازدياد عددهم وقوتهم).
4. **فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ**؛ أي: صار مستويًا وقائمًا على سيقانه، مكتمل القوام (إشارة إلى اكتمال الدين وظهور المؤمنين به).
5. **يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ**؛ بمعنى: أن الغاية من هذا النمو والظهور هو إدخال الغيظ والقهر في قلوب الكفار، وهو دليل على شدة قوة المسلمين.

وفي ختام الآية يقول عز وجل "وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا" ليعلن أن في هذا الختام بيانًا لما توفر لأولئك المؤمنين من جزاء عظيم ما داموا قد اتصفوا بتلك الصفات، وأن ذلك الجزاء هو **المغفرة للذنوب** و**الأجر العظيم** الذي هو الجنة بكل ما فيها من نعيم[24].

وعلى طريقة أهل التفسير بالرأي يسير أبو حيان الأندلسي –في البحر المحيط– بمنهجية تقوده إلى إمعان النظر في الجوانب اللغوية بوجه عام، وبذلك يفسر الآية شارحًا لها شرحًا جامعًا، ركز فيه على بلاغة وصف الصحابة وتكامل صفاتهم الدينية والجهادية، مع بيان التشبيه الوارد في الكتب السماوية السابقة.

وفي تفسيره أشار إلى أن الآية تُعدّ ثناءً شاملًا على النبي (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم)، كما أنها –إلى جانب ذلك– تُقسم صفاتهم إلى ثلاثة جوانب رئيسة هي:

1. ما تميز به النبي (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) ومن معه من المؤمنين من صفات في التعامل، ومن ذلك أن محمدًا رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم) ثابت النبوة التي تمثل أساسًا ترتكز عليه صفات أتباعه كلها، ثم يأتي الحديث عن صفة أخرى اتسم بها الرسول والذين معه من المؤمنين وهم الصحابة الذين جمعوا بين صفتين متكاملتين في المعاملة هما أنهم "**أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ**" **بما يتميزون به من قوة لا يخيفهم معها من خالفهم وقاتلهم وتلك هي الصفة الأولى، أما الثانية فإن بينهم من الرحمة والود والتآلف ما لا يقع إلا لهم ولأمثالهم ممن سلكوا سلوكهم ونهجوا نهجهم عبر العصور.**
2. وفي الحديث عما تتصف به عبادتهم من جوانب روحية يرى أبو حيان أنهم يطيلون ويخلصون في الركوع والسجود وفي ذلك ما يميزهم من سواهم بكثرة صلاتهم وإدمانهم للعبادة، ويشير إلى أن في هذا الوصف دلالةً على **ملازمتهم للطاعة بخشوع، وليس لهم –فيما يفعلونه– من غاية سوى هدف أسمى لا علاقة له** بالكسب الدنيوي، بل هو طلب **النعمة والرزق (الفضل)** وطلب **رضا الله** الذي هو أعلى الغايات، ومن صفاتهم أنك ترى أثر السجود على وجوههم وهي سمات تأتي على وجهين حسي ومعنوي الأول منهما تظهر علاماته بالتراب على جباههم والثاني معنوي –وهو الأقوى– لما يتميز به من خشوع ووقار ونور إيمان يظهر على وجوههم بسبب استنارة بواطنهم بالطاعة والعبادة.
3. وبالجملة فإن الله جل ثناؤه قد وصفهم في الكتب السابقة (التوراة والإنجيل) فقال تعالى "**ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي**

[24] – الألوسي، مرجع سابق، الجزء 26، الصفحة **166–170**.

التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ " بمعنى: أن ما وصفوا به من شدة ورحمة وعبادة هو ما ورد ذكرهم به في التوراة والانجيل، "**كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ...**" إخراجًا استحق – بما فيه من تشبيه بليغ– أن يكون مثلًا يفسر به **تطور الجماعة الإسلامية ونموها التدريجي** من ضعف إلى قوة وإلى ما هو أقوى منها وفي ذلك إشارة إلى ما مر به الإسلام من تدرج بدأ بالدعوة بين فئات قليلة إلى أن تمكن من أن يكون دولة ذات حضارة شهد لعظمتها المنصفون على مدى تعاقب التاريخ في مشارف الأرض ومغاربها، وفي الجملة القرآنية **فَآزَرَهُ**: إشارة إلى ما وقع لهذا الدين من قوة شدّت من أزره بالتناصر والتعاون، وفي المثل خاصية أخرى غايتها ما يوقعه في صدور الكفار من غيظ بعد أن فرح به المؤمنون بالدين الذين تمت الإشارة إليهم بلفظ الزراع، وفي تفسيره لما جاء في الآية من ختام "**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا**": يقرر أبو حيان أن في ذلك وعدًا للمؤمنين من الله بأنهم سينالون مغفرة الذنوب والفوز بالجنة وذلك خير وأبقى[25].

ذلك ما جاء عند أبي حيان ومنه ننتقل إلى قراءة ما ورد في "**الكشاف**" للزمخشري وسوف نجد أن الرجل قد وضع تحليلًا بلاغيًا عميقًا لهذه الآية الكريمة، رُكز فيه على ما عبرت به الآية عن **توازن بديع** في ذكر صفات المؤمنين، ثم نبّه إلى عظمة التشبيه القرآني لما مرت به الجماعة الإسلامية من تطور وتدرج في النمو، وعلى منهجيته –في التفصيل– يسير الزمخشري فيقرر أن الآية تضمنت ثناءً عظيمًا على النبي (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم)، مُبرزةً صفاتهم في أربعة محاور هي:

أولًا: إثبات النبوة وصفة التعامل مع الآخرين على النحو الآتي:

- "**مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ**": إخبار إلهي بصحة رسالته، وهو الأساس الذي تُبنى عليه صفات أتباعه.
- "**وَالَّذِينَ مَعَهُ**": هؤلاء هم الذين يُمثلون الأمة المؤمنة التي تلتزم بالمنهج.
- "**أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**": يُشدد الزمخشري على أن هاتين الصفتين **متكاملتان وليس بينهما ما يُفَسَر بتناقض على أي حال من الأحوال، ذلك أن** الشدة تأتي في الدفاع عن الحق ضد الأعداء الذين يحاربون الدين، وفيها علامة بارزة يستدل بها كل من يرغب في البحث عن دليل يعرف به عزة الإيمان، وأما الرحمة فهي أساس التآلف والمودة بين المؤمنين أنفسهم، وفي هذا التوازن الدقيق سر قوة الجماعة.

ثانيًا: صفة العبادة والهدف منها

- "**تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا**": وصف لملازمتهم للصلاة وكثرة عبادتهم، وفي ذلك دلالة على قوة الرابطة بينهم وبين خالقهم.
- "**يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا**": بمعنى أن غايتهم من كل هذا العمل في الجهاد والعبادة ليست دنيوية، بل إنها طلب **الرزق (الفضل)** وطلب **رضا الله (الرضوان)**، وهو أكمل الغايات.
- "**سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ**": يميل الزمخشري – في فهمه– لهذه "**السيما**" إلى أنها تعني **النور والخشوع والوقار** الذي يظهر على وجوههم بسبب ما يتفردون به من إخلاص في العبادة، وعلى الرغم من أنه لا ينفي احتمال أن يكون المقصود هو الأثر الحسي الظاهر، فإنه يرجح الجانب المعنوي.

[25] – انظر الأندلسي، مرجع سابق، الجزء العاشر 105–108.

ثالثًا: وصفهم في الكتب السماوية (التوراة والإنجيل)

- **"ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ"**: يرى صاحب الكشاف أن الصفات السابقة (الشدة والرحمة والعبادة) هي تلك التي وُصِفوا بها في التوراة.
- **"وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ"**: يرى أن في هذا النص القرآني تشبيهًا بديعًا يصف ما مرَّ به **الإسلام وأهله من نمو وتدرج:**

1. **أَخْرَجَ شَطْأَهُ:** بداية الإسلام بأفراد قليلين وضعفاء (الفروع الصغيرة).
2. **فَآزَرَهُ:** تقوية الفروع بعضها بعضًا ومساندتها للأصل (بدء التناصر والتماسك).
3. **فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ:** اكتمال قوة المسلمين واستقرار دولتهم، بعد أن صاروا متماسكين وقائمين على شؤونهم بذاتهم دون حاجتهم إلى من سواهم إلا الله العلي القدير.

- **"يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ"**: بمعنى أن الغاية من هذا النمو والظهور هي **إدخال الغيظ والقهر** في قلوب أعداء الدين والمسلمين.

رابعًا: الوعد الإلهي

- **"وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا"**: في هذا النص القرآني الكريم ختام إلهي يقرر وعد الله للمؤمنين بالجزاء العظيم وهو جزاء يشمل **المغفرة للذنوب** و**الأجر العظيم** في جنات النعيم[26].

وبقراءتنا لما قدمه سيد **قطب** في تفسيره للآية نجده يؤكد أنها تتميز بما تحمله –في دلالتها– من رؤية حركية ومنهجية، تتدرج في سرد صفات محمد (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم) ومن معه من المؤمنين، وفي شرحه للآية وتفسيرها يركز على أن هذه الصفات تشكل **معالم أساس لتكوين الجماعة المسلمة القوية** التي تقود البشرية، وليست مجرد وصف تاريخي للصحابة فحسب.

ثم يرى أن الآية تضع أُسس بناء الجيل المسلم، ويشير إلى أنها تجعل صفاته في جبهتين: إحداهما تجاه الخارج (الأعداء) والأخرى تجاه الداخل (الإخوة)، وقد لخص ترتيب ما تضمنته الآية من صفات وغيرها فيما يأتي:

1. إعلان الهوية والمواقف الحاسمة

"مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ": إن في هذا التركيب خلاصة تشكل العنوان **والإعلان الأول للهوية**، لأن البناء كله قائم على أساس الإيمان برسالة محمد (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم) وقيادته، وفيها دليل على التجمع والافتراق مع العالم، **أما الذين معه فهم الجماعة المختارة** التي تحمل هذا المنهج، **وهم من خصهم الله بصفة الشدة والقوة على من خالفهم من الكفار، وبالمقابل وصفهم جل ثناؤه بأنهم رحماء بينهم يتعاطفون ويتآلفون على نحو قلب إنسان واحد، وعلى هذا الأساس يفسر سيد قطب قول الله تعالى: "أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ" بأن فيه معنى الشدة على الكفار بمنهج صارم** وموقف قوي تجاه الباطل وأهله، وهي مواقف ضرورية للدفاع عن العقيدة وتطبيقها، ومن ثم فلا يمكن للمؤمن أن يلين في الحق أمام من يعادي الله، **أما الرحمة بينهم فهي الطاقة الحانية** التي تُذيب الخلافات وتُوحّد الصفوف، وبالجملة فإن سيد قطب يرى أن القوة الخارجية (الشدة) تستمد وجودها من هذا التماسك الداخلي (الرحمة).

[26] – انظر: الزمخشري، مرجع سابق، الجزء الرابع، الصفحة 343.

2. صفات العبادة والغاية السامية

"تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا" إن في هذا التركيب القرآني توضيحًا حاصله أن العبادة تعد **ميزان التوازن الداخلي**؛ ذلك أن القوة ليس مصدرها الأرض، بل إنها نابعة من الصلة بالله (ركعًا سُجّدًا)، وأما الغاية من هذا العمل كله فهي **طلب رضوان الله**، لأنه الهدف الأسمى الذي يجعلهم –من أجل الوصول إليه– يتحملون الشدة في الجهاد، ولهم من الصفات أن ثمة علامات تظهر فيهم وعليهم من أثر السجود، تلك العلامات التي تكشف عما يتميزون به من **نور وطمأنينة وإشراق** تكسو وجه كل مؤمن صادق، وهو أثر معنوي يتركه الإخلاص في الطاعة على النفس والجوارح.

3. العهد القديم (التوراة) والتشبيه الحركي (الإنجيل)

إن في قوله تعالى "ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ" إشارة كانت معروفة ومعلنة سلفًا، أما ما دل عليه قوله جل ثناؤه: **"وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ"**: فإن سيد قطب يرى فيه ذكرًا لنمو حركي **للجماعة المؤمنة**، بدأ **كزرع ضعيف** بسبب قلة العدد، ثم أخرج الزرع **شطأه** بتوالد المؤمنين وتكاثرهم، وبالمؤازرة **استغلظ فاستوى** في نمو القوة، وتماسك الصف، واستقامة المنهج، حتى أصبح اولئك المؤمنون ذوي مناعة قوية وعزيمة ضاربة، وفي ذلك كله ما يبهج الزراع وهم المؤمنون ويعجبهم من جانب ثم يغيظ الكفار وتضيق به صدورهم من جانب آخر.

وتنتهي الآية بما وعد الله به المؤمنين وعاملي الصالحات بثوابين هما المغفرة والأجر العظيم، وفي ذلك ما فيه من مكافأة لا ينالها إلا المتقون[27].

ونختم حوارنا مع من اخترناهم من المفسرين بالرأي وتتبعنا ما ذهبوا إليه في تفسير الآية بما أورده الشوكاني في تفسير **"فتح القدير"** إذا يرى أن الآية تُعدّ ثناءً عظيماً من الله على النبي محمد (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم)، بما في ذلك ذكر صفاتهم ومآلهم، وقد ركز الشوكاني على ما تحمله الآية من دلالات لغوية وبيانية يكشف عنها ما جاء في الآية من تشبيهات، وفي تفصيل حديثه عن تفسيرها يجعل ذلك التفصيل في محاور ثلاثة تُظهر كمال الصفات في الجماعة المؤمنة وقد جاءت المحاور عنده على النحو الآتي:

أولًا: إثبات النبوة والرسالة وما يترتب على ذلك من صفات التعامل

﴿**مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ**﴾: في ذلك يرى الشوكاني أن هذا إخبار وتصديق من الله بنبوة محمد (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم)، وهو المبتدأ الذي تُبنى عليه صفات أتباعه، أما الذين معه فهم **الصحابة الكرام** الذين آمنوا به واتبعوه وهم الذين وصفهم المولى جل ثناؤه بأنهم أشداء على الكفار بما يتميزون به من قوة و**غلظة وعزة** في الحق أمام كل من يخرج عنه ويخالفه إلى ما عداه، وعلى أية حال فإن هذه الشدة وتلك الغلظة تعدان موقفًا إيمانيًا، يمنع من الذل والوهن، وفي صفتهم الثانية أنهم رحماء بينهم **متحابون متوادون ومتعاطفون**، و يُشدد الشوكاني على أن هذا التوازن بين الشدة الخارجية والرحمة الداخلية سر قوتهم وتماسكهم.

ثانيًا: صفات العبادة والغاية السامية:

وفي وصف ما يؤدونه من عبادات بإخلاص يقول الله جل ثناؤه ﴿**تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا**﴾ **بما يطيلونه ويستمرون عليه من الركوع والسجود**، ومن ثم فإن رؤيتهم على هذه الحال تُثبت **إخلاصهم وتفرغهم للطاعة**، وليس لهم من

[27] – انظر: سيد قطب، المجلد السادس، الصفحة 3373–3377.

هدف مادي دنيوي لأن غايتهم تنتهي عند رغبتهم وأملهم في الحصول على أمرين أحدهما رضوان الله تعالى في الدنيا وطلب **الخير والرزق (الفضل)**، والثاني **رضوان الله** في الآخرة لأنه أعلى الدرجات التي يكافئ بها الله المؤمنين، ولن يعدم من يريد التعرف عليهم حيلة أو وسيلة للوصول إلى ما يريده، لأن الناظر إلى سيماهم في وجوههم من أثر السجود يبلغ به معرفة ما يريد، أما عن تلك السمات فإن الشوكاني يورد في تفسير معناها وفهمها قولين هما:

أ. **العلامة الحسية:** وهي الأثر الظاهر على الجباه من كثرة السجود.

ب. **العلامة المعنوية:** وهي **الخشوع والنور والوقار** الذي يظهر على وجوه أهل الطاعة والإخلاص، وهذا الثاني هو الأرجح عنده في التفسير.

ثالثًا: مثلهم في الكتب السابقة والجزاء

- ﴿**ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ**﴾: إشارة إلى أن الصفات السابقة (الشدة والرحمة والعبادة) هي ما وُصِفوا به في التوراة.
- ﴿**وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ**﴾: يفسر هذا التشبيه البلاغي بأنه يمثل **النمو المتدرج والقوي للجماعة المسلمة** كزرع أخرج شطأه إخراجًا يظهر فروعه أو أولاده، وفيه إشارة إلى ما كان عليه الصحابة –في بداية مسيرتهم من قلة، ولما بلغت المرحلة درجة المؤازرة استغلظ الزرع واستوى على سوقه بما ظهر عليه من نمو وكمال صار بهما قويًا شامخًا وقائمًا بذاته، وفي ذلك المثل كله دليل على ما مر به أولئك القوم من تدرج انتقلوا به من ضعف إلى قوة فأقوى، انتهى بهم إلى اكتمال الدين وقوة الأمة. وفي تركيب المثل في الآية إنجاز بلاغي يشير إلى أن بلوغ الاكتمال قد تحقق به أمران هما إعجاب الزراع وهم المؤمنون بما وصلوا إليه وغيظ الكفار بما انتهى إليه أمرهم من ضعف وهوان أمام المؤمنين.

وفي ختام الآية وعد إلهي للمؤمنين فيه إعلان عما سيبلغونه –في الآخرة– من **مغفرة للذنوب وأجر عظيم** في الجنة، وكفى بذلك نعيمًا لا يناله سوى من سار على دربهم وانتهج طريقهم في صحة الإيمان وسلامة اليقين[28].

وفي تعقيبنا على ما جاء به الخمسة المفسرون نخلص إلى ما يأتي:

1- يكادون يجمعون على طريقة الأداء في فهمهم للآية وتفسيرهم لما حملته من معان وكأنهم اتفقوا على أقوال متقاربة حتى في استعمال عبارات وتراكيب تكاد أشبه ما تكون بصياغة شخص واحد.

2- لقد ساروا على طريقتهم فيما انتهجوه من عدم الالتفات إلى سبب اختيار نصوص الآيات لاسم العلم (محمد) دون أي اسم آخر أو صفة من الصفات التي تضمنها القرآن الكريم، وفي يقيننا كما قدمنا– أنهم لو التفتوا إلى ذلك وركزوا عليه لوجدوا تناسبًا في الدلالة والبلاغة يهدف إلى الربط بين المحبة والحنو من جهة وما تكسبه تلك الصفتان لمن تمتع بهما من قوة وثبات وصبر من جهة أخرى.

3- لقد كان المفسرون الخمسة يركزون على ما في الآية من دلالات ويشيرون في ذلك إلى ما تميز به تركيبها من حسن بلاغة وجمال أداء وقوة بيان وهو ما حاولنا إدخاله ضمن نسيج شرحنا به تفاسيرهم بتصرف لا يخل أو يتدخل فيما ذهب إليه كل مفسر منهم.

[28] – انظر الشوكاني، مرجع سابق، الصفحة 61-63.

وبالجملة فإننا لم ولن نزعم لنفسينا بلوغ الكمال والاكتمال لأننا على يقين بأن ما لا قدرة لأحد على وصوله يبقى حقاً لمن يقدر عليه أو يُبلغه وينتهي إليه، وهو الله العلي القدير دون سواه.

خاتمة البحث ونتائجه:

وبعد،،،

فلقد جرى الأصل في كل بحث علمي أن ينتهي بخاتمة تتضمن نتائجه التي خلص إليها، وهو ما سنفعله ونسير عليه، غير أننا نود قبل ذلك أن نلفت الانتباه إلى قضيتين أو مسألتين إحداهما: أننا نكاد نكون ضمن قلائل من الباحثين الذين انتهجوا نهج العمل المشترك في إعداد بحث واحد ذي صلة بين تخصصين في مجالين هما (المجال اللغوي، والمجال المجتمعي "الخدمة الاجتماعية")، والثاني أننا نكاد نزعم تفردنا في اعتماد مسألة التماهي بين التخصصات العلمية واقتراب بعضها من بعضها الآخر ولا سيما في مجال العلوم الإنسانية على وجه الخصوص، وقد ساعدنا في نجاح ما انتهجناه موضوع بحثنا الذي أسهم لنفسه بنفسه في انتهاج خط المسيرة على وفق ما جاء في تراكيب الآيات القرآنية المدروسة ومضامينها، ذلك ما كنا نود –بحرص أكيد– أن نؤكده ونركز على إيضاحه بما نعتقد أننا بلغنا الغاية فيه لنأتي بعد ذلك على ذكر أهم النتائج أو بعضها على النحو الاتي:

أ. تكرر اسم العلم (محمد) في القرآن الكريم أربع مرات لا خمسًا كما يرى بعضهم؛ لأن الخامسة اسم السورة والاسم ليس آية من الآيات التي تحمل أرقامًا هذا من جهة، ثم إن المفسرين لم يتعرضوا لها بأي حديث من جهة أخرى.

2. تبين أن الخمسة المفسرين الذين عدنا إليهم واعتمدنا على تفاسيرهم لم يشيروا إلى سبب اختيار اسم محمد في الآية دون غيره من الأسماء والصفات التي امتلأ بها الكتاب، وعندنا –والله أعلم– أنه إنما اختار الاسم "محمد" ليقرب إلى الأذهان –بصورة لا تخلو من العاطفة القوية– أن الحبيب إلى ربه والقريب إليه بشر ولو كان الخلود قد استحق لأحد أو منحه الله لعبد من عبيده لكان ذلك البشر والعبد هو النبي محمد (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم)، ومن ثم فإن الله جل ثناؤه قد بنى تركيبًا نحويًا لغويًا اجتماعيًا يؤكد به وفيه تلك المسافة القريبة القوية بين النبي محمد (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم) وربه الكريم الرؤوف الرحيم.

3. إن المفسرين المشار إليهم يكادون ينفذون من مشكاة واحدة لا تختلف إلا في بعض الصياغات أو إشارات قليلة إلى ما يتميز به التركيب القرآني من أسرار نحوية دقيقة وأساليب بيانية واضحة تبعث على الاعجاب بما يتميز به القرآن من إعجاز مطلق كبير.

4. التمييز الواضح بين كفار أنكروا الحق ومؤمنين عرفوا طريقه واتبعوه وساروا على نهجه بالقول والعمل فنالوا من ربهم خير الفضل وأحسن الجزاء وأفضل الثواب.

المصادر والمراجع:

أولًا: القرآن الكريم.

ثانيًا: بقية المصادر والمراجع:

[1] الألوسي: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1415 هـ / 1994 م.

[2] البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب مرض النبي (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) ووفاته، (حديث رقم 4452)، بدون سنة نشر.

[3] أبو حيان الأندلسي: محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، ارتشاف الضرب من لسان العرب، تحقيق رجب عثمان محمد مراجعة رمضان عبد

التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، الجزء الأول، الطبعة الأولى، 1418هـ- 1998م.

[4] أبو حيان الأندلسي: محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، بيروت، دار الفكر، 1420 هـ / 2000 م.

[5] الزمخشري: أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، بيروت، لبنان، بدون تاريخ نشر.

[6] سيد قطب: سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، لبنان، 1412 هـ / 1992 م.

[7] الشوكاني: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، فتح القدير: الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1419 هـ / 1999 م.

[8] الطبري، محمد بن جرير. جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري). تحقيق: أحمد محمد شاكر. الطبعة الأولى. القاهرة: مؤسسة الرسالة. (1420 هـ)، الجزء 20.

[9] عبد الرحمن رجب: الخدمة الاجتماعية من منظور إسلامي، المؤتمر الثاني للتوجيه الإسلامي للخدمة الاجتماعية: ميادين ومجالات الخدمة الاجتماعية بنظرة إسلامية – القاهرة، 1993م. المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

[10]ابن عقيل: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ومعه كتاب منحة الجليل، بتحقيق شرح ابن عقيل تأليف محمد محي الدين عبد الحميد، الجزء الأول، دار الفكر للطباعة والنشر بيروت- لبنان، الطبعة الثانية، 1985م.

[11]فاضل صالح السامرائي: معاني النحو، دار الفكر، المجلد الأول، الجزء الأول، الطبعة الخامسة، 1432هـ-2011م.

[12]الفيروز أبادي، القاموس المحيط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1309هـ، مادة ح-م-د-

[13]ابن كثير: إسماعيل بن عمر. تفسير القرآن العظيم. تحقيق: سامي بن محمد سلامة.الطبعة الثانية. الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع. (1419 هـ)، الجزء 6.

[14]المرتضى الزبيدي: محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تاج العروس، تحقيق الدكتور عبد العزيز مطر، راجعه عبد الستار أحمد فراج-وزارة الارشاد والأنباء، الكويت، 1414هـ- 1994م، مادة ح-م-د-.

[15]ابن منظور: لسان العرب، د-ت، دار المعارف القاهرة، مادة ح-م-د-.

[16]أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ، الجزء الثاني.

[17]ابن هشام: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، ومعه كتاب عدة السالك، إلى تحقيق أوضح المسالك تأليف محمد محي الدين عبد الحميد، المجلد الأول، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.